
نجيب محفوظ
اللص
والكلاب

اللص والكلاب

نجيب محفوظ

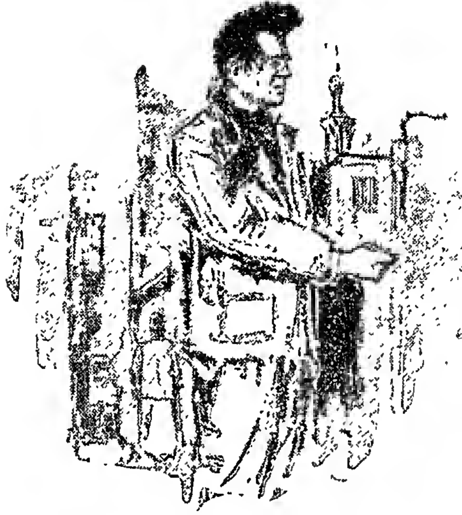
اللص والكلاب

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٢٧ شارع كامل صدقي الفجالة



الفصل الأول



مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية ، ولكن فى الجو غبار خانق وحر لا يطاق . وفى انتظاره وجد بدلته الزرقاء وحذاءه المطاط ، وسواهما لم يجد فى انتظاره أحـدا . ها هى الدنيا تعـود ، وها هو باب السجن الأصم يبتعد منطويا على الأسرار اليائسة . هذه الطرقات المثقلة بالشمس ، وهـذه السيارات المجنونة ،

والعابرون والجالسون ، والبيوت والدكاكين ، ولا شفة تفتر عن ابتسامة . وهو واحد ، خسر الكثير ، حتى الأعوام الغالية خسر منها أربعة غدرا ، وسيقف عما قريب أمام الجميع متحديا . آن للغضب أن ينفجر وأن يحرق ، وللخونة أن ييأسوا حتى الموت ، وللخيانة أن تكفر عن سحنتها الشائهة . نبوية عليش ، كيف انقلب الاسمان اسما واحدا ؟ ، أنتما تعملان لهذا اليوم ألف حساب ، وقديما ظننتما أن باب السجن لن ينفتح ، ولعلكما ترقبان فى حذر ، ولن أقع فى الفخ ، ولكنى سأنقض فى الوقت المناسب كالقدر . وسناء اذا خطرت فى النفس انجاب عنها الحر والغبـــار والبغضاء والكدر . وسطع الحنان فيها كالنقاء غب المطر . ماذا تعرف الصغيرة عن أبيها ؟ .. لا شيء ، كالطريق والمارة والجو المنصهر . طوال أربعة أعوام لم تغب عن باله ، وتدرجت فى النمو وهى صـــورة غامضة ، فهل يسمح الحظ بمكان طيب يصلح لتبادل الحب ، ينعم فى ظله بالسرور المظفر ، والخيانة ذكرى كريهة بائدة ؟ . استعن بكل ما أوتيت من دهاء ، ولتكن ضربتك قوية كصبرك الطويل وراء الجدران . جاءكم من يغوص فى الماء كالسمكة ويطير فى الهواء كالصقر ويتسلق الجدران كالفأر وينفذ من الأبواب كالرصاص . ترى بأى وجه يلقاك ؟ ، كيف تتلاقى العينان ؟ ، ألسيت يا عليش كيف كنت تتمسح فى ساقى كالكلب ؟ ، ألم أعلمك الوقوف على قدمين ؟ ، ومن الذى جعل من جامع الأعقاب رجلا ؟ ، ولم تنس وحدك

يا عليش ولكنها نسيت أيضا ، تلك المرأة النابتة فى طينة نتنة اسمها الخيانة . ومن خلال هــذا الكدر المنتشر لا يبسم الا وجهك يا سناء ، وعما قريب سأخبر مدى حظى من لقيــاك ، عندما أقطع هذا الشارع ذا البواكى العابسة ، طريق الملاهى البائدة ، الصاعد الى غير رفعة ، أشهد أنى أكرهك . الخمارات أغلقت أبوابها ولم يبق الا الحوارى التى تحاك فيها المؤامرات ، والقدم تعبر من آن لآن نقرة مستقرة فى الطوار كالمكيدة ، وضجيج عجلات الترام يكركر كالسب ، ونداءات شتى تختلط كأنما تنبعث من نفايات الخضر ، أشهد أنى أكرهك . ونوافذ البيوت المغرية حتى وهى خالية ، والجدران المتجهمة المقشفة ، وهذه العطفة الغريبة عطفة الصيرفى ، الذكرى المظلمة ، حيث سرق السارق ، وفى غمضــة عين انطوى ، الويل للخونة . فى هذه العطفة ذاتها زحف الحصار كالثعبان ليطوق الغافل ، وقبل ذلك بعام خرجت من العطفة ذاتها تحمل دقيق العيد والأخرى تتقدمك حاملة ســناء فى قماطهــا ، تلك الأيام الرائعــة التى لا يدرى أحد مدى صــدقها ، فانطبعت آثار العيــد والحب والأبوة والجريمة فوق أديم واحد . وتراءت الجوامع الشاهقة ، وطارت رأس القلعة فى السماء الصــافية ، وانساب الطريق فى الميدان ، وتجلت خضرة البستان تحت الأشعة الحامية ، وهبت نسمة جافة رغم القيظ منعشة ، ميــدان القلعة بكل ذكرياته المحرقة . وكان على الوجه الذى لفحتــه الشمس أن ينبسط

وأن يصب ماءً باردا على جوفه المستعر كي يبدو مسالما أليفا فيمثل دوره المرسوم كما ينبغي . واجتاز وسط الميدان متجها نحو سكة الامام . ومضى فيها يقترب من البيت ذى الأدوار الثلاثة فى نهايتها وعلى مفرق عطفتين جانبيتين يتفـــرع اليهما الطريق الأول . فى هـــذه الزورة البريئة سيكشف العدو عما أعده للقاء ، فادرس طريقك ومواقعه ، وهذه الدكاكين التى تشرئب منها الرءوس كالفيران المتوجسة . وجاءه صوت من وراء يقول :

ــ سعيد مهران ! .. ألف نهار أبيض ..

توقف عن المسير حتى أدركه الرجل فتصافحا وهما يغطيان على انفعـــالاتهما الحقيقية بابتســـامة باهتة . اذن بات للوغد أعوان ، وسيرى قريبا ما وراء هذا الاستقبال ، ولعلك تنظر من الشيش مستخفيا كالنساء يا عليش .

ــ أشكرك يا معلم بياظة ..

ولحق بهما كثيرون من الدكاكين على الجانبين ، وارتفعت حرارة التهانى ، وسرعان ما وجد نفسه مطوقا من جميع الجهات بحشد من أصدقاء غريمه ولا شك ، واستبقت الحناجر قائلة :

ــ الحمد لله على سلامتك ..

ــ مبارك للأصدقاء والأحباب ..

ــ قلنا من القلوب سيفرج عنه فى عيد الثورة ..

فقال وهو يتفحصهم بعينيه اللوزيتين العسليتين :

ـــ الشكر لله ولكم ..

فربت بياظة على منكبه قائلا :

ـــ تعال الى الدكان لنشرب الشربات !

فقال بهدوء :

ـــ فيما بعد ، عند العودة ..

ـــ العودة ؟ !

وصاح أحد الرجال موجها حنجرته الى الدور الثانى من البيت :

ـــ يا معلم عليش ! .. يا معلم عليش انزل هنىء سعيد مهران !

لا داعى للتحذير يا خنفساء . انى قادم فى ضوء النهار . وأعلم أنكم تترقبون . وعاد بياظة يتساءل :

ـــ العودة من أين ؟

ـــ لدى حساب يجب أن أسويه ..

فتساءل بوجه ممتعض :

ـــ مع من ؟

ـــ أنسيت أننى أب ؟ .. وأن ابنتى الصغيرة عند عليش ؟

ـــ نعم ، ولكل خلاف حل فى الشرع ..

وقال آخر :

ـــ والتفاهم خير ..

وثالث قال بنبرة المسالم :

ـــ سعيد أنت قادم من السجن والعاقل من اتعظ !

فقال وهو يدارى حنقه المختنق :

ـــ من قال انى جئت لغير التفاهم ؟ !

وفتحت نافذة من الدور الثانى وأطل منها عليش فارتفعت الرءوس اليه فى توتر . وقبل أن تبدر كلمة خرج من باب البيت رجل طويل عريض ، فى جلباب مقلم ، ينتعل حذاء حكوميا فعرف سعيد فيه المخبر حسب الله ، وسرعان ما تظاهر بالدهش وقال منفعلا :

ـــ ماذا دعا الى اقلاقك وما جئت الا للتفاهم ؟

فمضى نحوه مسرعا وتحسسه مفتشا عما يريب فى صدره أو جيوبه ، فعل ذلك بمهارة وخفة ودربة وهو يقول :

ـــ اسكت يا بن الثعلب ، ماذا تريد ؟

ـــ جئت للتفاهم على مستقبل ابنتى ..

ـــ أنت تعرف التفاهم !

ـــ نعم ، من أجل ابنتى ..

ـــ عندك المحكمة ..

ـــ سألجأ اليها عند اليأس !

وصاح عليش من أعلى :

ـــ دعه يدخل ، تفضلوا ..

اجمعهم حولك يا جبان . انما جئت أجس حصونك . وعند الأجل لا ينفع مخبر ولا جدار . ودخلوا حجرة الاستقبال

فتفرقوا فوق الكتب والمقاعد . وفتحت النوافذ فاندفع الضوء والذباب ، وتبدت فى البساط السماوى نقط سود من أثر حروق . وحملق عليش من صورة كبيرة فى الجدار معتمدا بقبضتيه عصا غليظة . أما المخبر فقد جلس الى جانب سعيد وراح يعبث بحبات مسبحة . ودخل عليش سدره فى جلباب فضفاض منتفخ حول جسم برميلى ، رافعا وجها مستديرا ممتلىء اللغد تحت ذقن مربعة وأنف غليظ محطم العرنين ، صافح سعيد متظاهرا بالشجاعة وقال :

ـــ حمدا لله على سلامتك !

وسرعان ما تأزم الجو بالصمت وتبودلت نظرات قلقة حتى عاد عليش يقول وكأنما يرغب فى فتح صفحة جديدة :

ـــ ما فات فات ، وكل ما حصل يقع كل يوم ، وقد تحدث أمور مؤسفة وتنهار صداقات قديمة ، ولكن لا يعيب الرجل الا العيب !

بدا سعيد وهو يتابعه بعينيه البراقتين وجسمه النحيل القوى كأنه نمر يتربص بفيل ، ولم يسعه الا أن يردد قوله :

ـــ لا يعيب الرجل الا العيب ..

وحدجته أعين كثيرة عقب ترديده ، وكفت يد المخبر عن العبث بحبات المسبحة فأدرك هو ما يجول بخاطرهم فقال مستدركا :

ـــ أوافقك على ما قلت حرفا بحرف ..

فقال المخبر بضجر :

ــ ادخلوا فى الموضوع واعفونا من اللف ..

فتساءل سعيد بسخرية خفية :

ــ من أى ناحية ؟

ــ ناحية واحدة هى التى يجوز الكلام فيها وهى ابنتك !

وزوجتى وأموالى يا جرب الكلاب ! . الويل .. الويل . أريد أن أتلقى نظرة من عينيك . كى أحترم من الآن فصاعدا الخنفساء والعقرب والدودة . سحقا لمن يطرب لأنغام امرأة . لكنه هز رأسه بالايجاب ، فقال أحد ماسحى الجوخ :

ــ بنتك فى الحفظ والصون ، مع أمها ، وشرعا يجب أن تبقى مع أمها بنت ستة أعوام ، وان شئت أزورك بها كل أسبوع ..

فرفع سعيد صوته متعمدا ليسمع من فى الخارج :

ــ شرعا هى حق لى لشتى الملابسات والظروف ..

فتساءل عليش فى غلظة :

ــ ماذا تقصد ؟

ولكن المخبر عاجله قائلا :

ــ لن يجىء من الكلام الا وجع الدماغ ..

فقال عليش بيقين :

ــ لم أرتكب جريمة ولكنها القسمة والنصيب ، والواجب

أيضا ، واجب المروءة دفعنى الى ما فعلت ، ومن أجل البنت الصغيرة أيضا !

واجب المروءة يا ابن الأفعى ! . الغدر والخيانة المزدوجة. المطرقة والفأس وجبل المشنقة . ولكن ما شكل سناء الآن ؟ . وقال بهدوء ما استطاع :

ـــ لم أتركها فى حاجة ، كانت لديهـا أموالى ، أموال طائلة ..

فهتف المخبر :

ـــ تقصد مسروقاتك ؟ ! تلك التى أنكرتها فى المحكمة !

ـــ ليكن ، ولكن أين ذهبت ؟ !

فصاح عليش :

ـــ ولا مليم ! ، صدقونى يا رجال ، كانت الحال لا يسر بها عدو ولا حبيب ، وحقا قمت بالواجب ..

فتساءل سعيد فى تحد :

ـــ خبرنى كيف أمكنـك أن تعيش فى سـعة وأن تنفق على الآخرين ؟

فصـاح عليش محتدا :

ـــ هل أنت ربّنا حتى تحاسبنى ؟

وقال رجل من ماسحى الجوخ :

ـــ اخز الشيطان يا سعيد ..

وقال المخبر :

ـــ أنا عارفك وفاهمك ، أنا خير من يقرأ داخل رأسك ، ولكنك ستهلك نفسك ، لا تخرج عن موضـــوع البنت فهذا خير لك ..

فتراجع ســـعيد باسما وهو يخفى عينيــه فى الأرض وقال باستسلام :

ــ بالحق نطقت يا حضرة المخبر ..

ــ أنا عارفك وفاهمك ولكننى سأماشيك احتراما لهؤلاء الرجال ، هاتوا البنت ، أليس الأفضل أن نعرف رأيها أولا ؟

ــ كيف يا حضرة المخبر ؟

ــ يا سعيد أنا فاهمك ، أنت لا تريد البنت ، ولا تستطيع أن تأويها ، ولن تجد لنفسك مأوى الا بعد الجهد ، ولكن من العدل والرحمة أن تراها ، هاتوا البنت ..

بل هاتوا أمها . كم أرغب أن تلتقى العينان . كى أرى سرا من أسرار الجحيم . الفأس والمطرقة . وقام عليش ليجىء بها .

وعندما ترامى وقع الأقدام القادمة خفق قلب ســـعيد خفقة موجعة وتطلع الى الباب وهو يعض على باطن شفتيه . مسح تطلع شيق وحنان جارف جميع عواطف الحنق . وظهرت البنت بعينين داهشتين بين يدى الرجل ، ظهرت بعد انتظار طال ألف سنة . وتبدت فى فستان أبيض أنيق وشبشب أبيض كشف عن أصابع قدميها المخضوبتين . وتطلعت بوجه أسمر وشعر أسود مسبسب فوق الجبين فالتهمتها روحه . وجعلت تقلب عينيها فى

الوجوه بغرابة ، وفى وجهه خاصة باستنكار لشــدة تحديقه ولشعورها بأنها تدفع نحوه ، واذا بها تفرمل قدميها فى البساط وتميل بجســمها الى الوراء . لم ينزع منها عينيه ولكن قلبه انكسر ، انكسر حتى لم يبق فيه الا شعور بالضياع . كأنهــا ليست بابنته . رغم العينين اللوزيتين والوجه المستطيل والأنف الأقنى الطويل . ونداء الدم والروح ما شأنه ؟ . أم هو الآخر قد خان وغدر ؟ . وكيف له رغم ذلك كله بمقاومة هذه الرغبــة الجامحة فى ضمها الى صدره حتى الفناء ؟ .

وقال المخبر بضجر ودون اكتراث :

ــ أبوك يا شاطرة !

وقال عليش بوجه لا يبين عن شيء :

ــ سلمى على بابا ...

كالفأرة ! . مم تخــاف ! . ألا تدرى كم يحبها ! . ومد نحوها يده ولكنه بدل الكلام شرق فازدرد ريقه . وابتسم فى رقة واغراء . وقالت ســناء لا . وتحركت لتتسلل راجعة لولا الرجل وراءها . وهتفت « ماما » فدفعهــا الرجل برقة وهو يقــول :

ــ سلمى على بابا ..

وتجلت فى الأعين نظرات اهتمام ، وشماتة . وآمن سعد بأن جلد السجن ليس بالقسوة التى كان يظنها . وقال متوسلا :

ــ تعالى يا سناء ..

ولم يعد يحتمل رفضها فقام نصف قومة ومال نحوها فهتفت :

ـ لا ..

ـ أنا بابا .

فرفعت عينيها الى عليش سدرة مستغربة فقال سعيد باصرار :

ـ أنا بابا ، أنا ، تعالى ..

فتأبت واشتد ميلها الى الوراء . جذبها نحوه بشيء من القوة . صرخت . ضمها الى صدره فدافعته باكية . ومال نحوها ليلثم ـ رغم هزيمته ويأسه ـ فاها أو خدها ولكن شفتيه لم تلثما الا ساعدها المتحرك فى عصبية غير راحمة .

ـ أنا بابا ، لا تخافى ، أنا بابا ..

وأفعمت رائحة شعرها روحه بذكرى أمها فنقبضت أساريره . وازدادت البنت مدافعة وبكاء حتى قال المخبر :

ـ على مهلك ، البنت لا تعرفك ..

فتركها تجرى يائسا ، ثم اعتدل فى جلسته وهو يقول بغضب :

ـ سوف آخذها ..

ومضت هنيهة صمت قبل أن يقول له بياظة :

ـ هدىء نفسك أولا ..

فقال باصرار :

ـــ لا بد أن تعود اليّ ..

فقال المخبر بحدة :

ـــ دع القرار للقاضى ..

ثم التفت نحو عليش متسائلا :

ـــ نعم ؟

فقال عليش :

ـــ الأمر لا يخصنى فى شىء ولكن أمها لن تفرط فيهـا الا بالشرع ..

فقال المخبر :

ـــ كما قلت أول الأمر ، كلمة واحدة لا ثانى لها ، وهى المحكمة !

وشعر سعيد بأنه لو تمادى فى الغضب لانفجـر جنـونه فتسلط على مشاعره بقوة غير طبيعية مذكرا نفسه بأشياء كاد ينساها ، وقال بهدوء نسبى :

ـــ نعم المحكمة !

فقال بياظة :

ـــ والبنت كما ترى تعيش فى رعاية وراحة ..

وقال المخبر فى لهجة لم تخل من سخرية :

ـــ ابحث أولا عن طريق مستقيم تأكل منه لقمتك ..

رغم هذا بدا أنه يسيطر على نفسه أكثر فأكثر حتى قال :

ـــ نعم ، كل هذا حق ، ولا داعى للأسـف من ناحيتى ،

وسأعاود التفكير فى الأمر كله ، ولا شك أنه خير أن أنسى الماضى وأن أبحث عن عمل حتى أهيىء للبنت مكانا طيبا فى الوقت المناسب .

وساد الصمت دهشة فتبودلت نظرات مصدقة وغير مصدقة ، وكوّر المخبر قبضته على المسبحة متسائلا :

ــ انتهينا ؟

فقال سعيد :

ــ نعم ، ولكنى أريد كتبى ..

ــ كتبك ! ؟

ــ نعم ..

فصاح عليش :

ــ ضاع أكثرها بيد سناء وسأحضر لك ما بقى منها ..

وغاب الرجل برهة ثم عاد حاملا على يديه عامودا متوسطا من الكتب ، فوضعه وسط الحجرة . وقام سعيد الى المجموعة فتناول كتابا اثر آخر وهو يقول بأسف :

ــ ضاع أكثرها حقا ..

وضحك المخبر متسائلا :

ــ من أين لك هذا العلم ؟

ثم وهو ينهض معلنا انتهاء المقابلة :

ــ أكنت تسرق فيما تسرق الكتب ؟

وابتسم الجميع ولكن سعيد أقبل يحمل الكتب دون أن يبتسم ..

الفصل الثانى

نظر الى الباب المفتوح ، المفتوح دائما كما عهده من أقصى الزمن ، وهو يقترب منه ضاربا فى طريق الجبل . مثوى ذكريات ورحمة فى حى الدراسة القائم بين ذراعى المقطم . الأرض أطفال ورمال ودواب وهو من التعب والانفعال يلهث . وجرت عيناه وراء الصغيرات من البنـات بلا ملل . وما أكثر الكسـالى المستلقين فى ظل الجبل بعيدا عن الشمس المائلة . ووقف على عتبة الباب المفتوح قليلا ، ينظر ويتذكر ، ترى متى عبر هذه العتبة آخر مرة ؟ . يا له من مسكن بسيط كالمساكن فى عهـد آدم . حوش كبير غير مسقوف فى ركنه الأيسر نخـلة عالية مقوسة الهامة ، والى اليمين من دهليز المدخل باب حجرة وحيدة مفتوح . لا باب مغلق فى هذا المسكن العجيب . وخفق قلبه فأرجعه الى عهد بعيد طرى ، طفولة وأحلام وحنان أب وأخيلة سماوية . المهتزون بالأناشيد يملئون الحوش والله فى أعمـاق الصدور يتردد . انظر واسمع وتعلم وفتح قلبك .. هكذا كان يقول الأب . وفرحة كالجنة بعثها الحلم والايمان ، وفرحة بالغناء والشاى الأخضر أيضا . ترى كيف حالك يا شيخ على يا جنيدى يا سيد الأحياء ؟ . وترامى اليه صوت من داخل الحجرة وهو

يختم الصلاة فابتسم سعيد ومرق من باب الحجرة حاملا كتبه . هاك الشيخ متربعا على سجادة الصلاة غارقا فى التمتمة . وهذه هى الحجرة القديمة لم يكد يتغير منهـا شىء . الحصر جددت شكرا للمريدين ، وما زال الفراش البسيط لصق الجدار الغربى ، وشعاع الشمس المائلة ينسكب من كوة عند قدميه ، أما بقية الجدران فقد اختفى أسـفلها وراء أرفف المجلدات ، ورائحـة البخور مستقرة كأنما لم تنبخر منذ عشرات الأعوام . تخفف من حمله واقترب من الشيخ قائلا :

ـ السلام عليكم يا سيدى ومولاى !

أتم الشـيخ تمتمته ثم رفع رأسه عن وجه نحيـل فائض الحيوية بين الاشراق تحف به لحية بيضاء كالهالة . وعلى الرأس طاقية بيضاء منغرزة فى سوالف كثة فضية . حدجه بعين رأت الدنيا ثمانين عاما ورأت الآخرة . عين لم تفقد جاذبيتها ونفاذها وسحرها فلم يملك سعيد من أن يهوى على يده فيقبلهـا وهو يدفع دمعة باطنية استقطرها من جو الذكريات والأب والأمل والسماء فى الماضى البعيد .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله ..

هذا صوت زمان ! . ترى كيف كان صوت أبيه ؟ . كأنما يتذكر صوت أبيه بعينيه فيرى وجهه وشـفتيه وهما يتحركان ولكن الصـوت انتهى . وأين المريدون ، أين أهـل الذكر ،

يا سيدى محمد على بابك ! . وتربع أمامه على الحصــيرة وهو يقــول :

ــ أجلس دون استئذان لأنى أذكر أنك تحب ذلك !

شعر بأن الشيخ ابتسم من دون أن ترتسم على شــفتيه الغارقتين فى البياض ابتسامة . ترى هل تذكّره ؟ . وقال :

ــ لا تؤاخذنى ، لا مكان لى فى الدنيا الا بيتك ..

ترك الشيخ رأســه يهوى فى صـــدره وهو يقول بصوت هامس :

ــ أنت تقصد الجدران لا القلب ..

فتنهد سعيد ، وبدا لحظــة كأنه لم يفهم شــيئا ، ثم قال بصراحة ودون مبالاة :

ــ خرجت اليوم فقط من السجن ..

فأغمض الشيخ عينيه متسائلا :

ــ السجن !

ــ نعم ، أنت لم ترنى منــذ أكثر من عشرة أعوام ، وفى تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة ، ولعلك سمعت عنها من بعض مريديك الذين يعرفوننى ...

ــ لأننى أسمع كثيرا لا أكاد أسمع شيئا ..

ــ على أى حال لا أحب أن ألقاك متنكرا ، لذلك أقول لك أننى خرجت اليوم فقط من السجن ..

فهز رأسه فى بطء وهو يفتح عينيه قائلا فيما يشبه الأسى :

ـــ أنت لم تخرج من السجن ..

فابتسم ســعيد . كلمات العهد القديم تتردد من جديد ، حيث لكل لفظ معنى غير معناه . وقال :

ـــ يا مولاى ، كل سجن يهون الا سجن الحكومة ..

فرنا اليه بعين رائقة ثم تمتم :

ـــ يقول ان كل سجن يهون الا سجن الحكومة ..

فابتسم ســعيد مرة أخرى . كاد ييأس من التلاقى . ثم تساءل فى حرارة :

ـــ هل تذكرتنى ؟

فغمغم الشيخ دون مبالاة :

ـــ ولك الساعة التى أنت فيها !

ومع أنه لم يشك فى أنه تذكره الا أنه تساءل مستزيدا من الثقــة :

ـــ وأبى عم مهران الله يرحمه ؟

ـــ الله يرحمنا ..

ـــ ما أجمل الأيام الماضية !

ـــ قل ذلك ان استطعت عن الساعة ..

ـــ ولكن ..

ـــ الله يرحمنا !

ـــ قلت انى خارج اليوم من السجن ..

فهز رأسه فى طرب مفاجىء قائلا :

ـ وقال وهو على الخازوق باسما : جرت مشـيئته بأن نلقاه هكذا ..

أبي كان يفهمك . كم أعرضت عني حتى خلتـك تطردني طردا . ورجعت بقدمي الى جو البخور والقلق . هكذا يفعل موحش القلب الذي لا بيت له وقال :

ـ مولاي ، قصدتك في ساعة أنكرتني فيها ابنتي ..

فقال الشيخ متأوها :

ـ يضع سره في أصغر خلقه !

فقال جادا :

ـ قلت لنفسي اذا كان الله قد مد له في العمـر فسأجد الباب مفتوحا ..

فقال الشيخ بهدوء :

ـ وباب السماء كيف وجدته ؟

ـ لكني لا أجد مكانا في الأرض ، وابنتي أنكرتني ...

ـ ما أشبهها بك ..

ـ كيف يا مولاي ؟

ـ أنت طالب بيت لا جواب ..

فأسند رأسه المفلفل الى يده المعروقة الدكناء وقال :

ـ كان أبي يقصدك عند الكرب ، وجدت نفسي ..

فقاطعه بهدوء لا يخرج عنه :

ـ أنت تريد بيتا ليس الا ..

تضاعف شعوره بأنه يعرفه ، وقلق دونما سبب مفهوم ، وقال :

ــ ليس بيتا فحسب ، أكثر من ذلك ، أود أن أقول اللهم ارض عنى ..

فقال الشيخ كالمترنم :

ــ قالت المرأة السماوية : « أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟! » .

وضج الخلاء فى الخارج بنهيق حمار ختتم بحشرجة كالبكاء ، وغنى صوت لا حلاوة فيه « البخت والقسمة فين » . كما ضبطه أبوه وهو يغنى « حزر فزر » فلكمه برحمة وقال له « أهذه أغنية مناسبة ونحن فى الطريق الى الشيخ المبارك ؟ » وترنح الأب وسط الذكر ، غابت عيناه ، بح صوته ، تصبب عرقا . وجلس هو عند النخلة يشاهد صفى المريدين تحت ضوء الفانوس ويقضم دومة وينعم بسعادة عجيبة . وكان ذلك سابقا لنزول أول قطرة حارقة من شراب الحب . وأغمض الشيخ عينيه فكأنه نام . وألف هو المنظر والجو حتى البخور لم يعد يشمه . وطرأت فكرة بأن العادة أساس الكسل والملل والموت . وهى المسئولة عما عانى من خيانة وجحود وضياع جهد سدى . وتساءل ليوقظه :

ــ ألا تزال تحيا الأذكار هنا ؟

فلم يجبه . وساوره القلق فعاد يسأل :

ــ ألا ترحب بى ؟

ففتح الشيخ عينيه قائلا :

ــ ضعف الطالب والمطلوب ..

ــ لكنك صاحب البيت !

فقال فى مرح طارىء :

ــ صاحب البيت يرحب بك ، وهو يرحب بكل مخلوق ، وبكل شىء ..

فابتسم سعيد متشجعا ، فاستدرك الشيخ قائلا :

ــ أما أنا فصاحب لا شىء ..

وكان ضــوء الشمس المرسوم على الحصيرة قد انسحب الى الجدار فقال سعيد :

ــ على أى حال فهذا البيت بيتى ، كما كان بيت أبى ، وبيت كل قاصد ، وأنت يا مولاى جدير بكل شكر ..

فقال الشيخ :

ــ اللهم انك تعلم عجزى عن مواضع شكرك فاشكر لنفسك عنى ، هكذا قال بعض الشاكرين !

فقال سعيد برجاء :

ــ انى فى حاجة الى كلمة طيبة ..

فقال فى عتاب حليم :

ــ لا تكذب ..

وأحنى رأســه حتى انتشرت لحيته على صــدره وراح مستغرقا . انتظر سعيد صابرا ، ثم تزحزح الى الوراء ليسند ظهره الى رف من رفوف الكتب ، وجعل يتأمل الشيخ الجميل . ولما طال انتظاره سأله :

ـ هل من خدمة أؤديها لك ؟

فلم يعن بالالتفات الى قوله ، ومضى زمن صامت وعينا سعيد تتابع طابورا من النمل يزحف بخفة بين ثنيات الحصيرة ، واذا بالشيخ يقول :

ـ خذ مصحفا واقرأ ..

فارتبك سعيد قليلا ثم قال بلهجة المعتذر :

ـ غادرت السجن اليوم ولم أتوضأ ..

ـ توضأ واقرأ ..

فقال بلهجة جديدة شاكية :

ـ أنكرتنى ابنتى ، وجفلت منى كأنى شيطان ، ومن قبلها خانتنى أمها !

فعاد الشيخ يقول برقة :

ـ توضأ واقرأ ..

ـ خانتنى مع حقير من أتباعى ، تلميذ كان يقف بين يدى كالكلب ، فطلبت الطلاق محتجة بسجنى ، ثم تزوجت منه .

ـ توضأ واقرأ ..



فقال باصرار :

ــ ومالى ، النقود والحلىّ ، استولى عليها ، وبها صار معلما قد الدنيا ، وجميع أنذال العطفة أصبحوا من رجاله ..

ــ توضأ واقرأ ..

بعبوس وقد انتفخت عروق جبينه :

ــ لم يقبض علىّ بتدبير البوليس ، كلا ، كنت كعادتى واثقا من النجاة ، الكلب وشى بى ، بالاتفاق معها وشى بى ، ثم تتابعت المصائب حتى أنكرتنى ابنتى ..

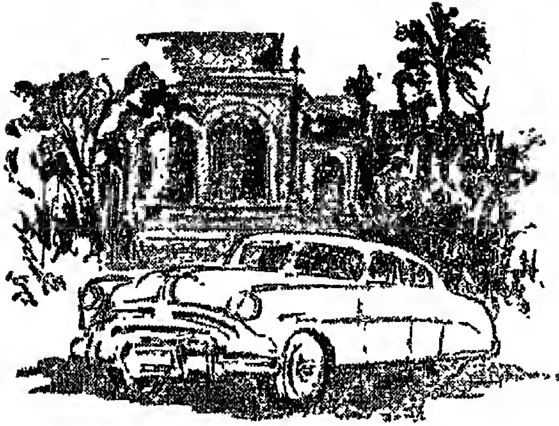
فقال الشيخ بعتاب :

ــ توضأ واقرأ « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ، واقرأ « واصطنعتك لنفسى » وردد قول القائل « المحبة هى الموافقة أى الطاعة له فيما أمر ، والانتهاء عما زجر ، والرضا بما حكم وقدّر » .

ها هو أبى يسمع ويهز رأسه طربا . ويرمقنى باسما كأنما يقول لى اسمع وتعلم . وأنا سعيد وأود غفلة لأتسلق النخلة . أو أرمى طوبة لأسقط بلحة . وأترنم سرا مع المنشدين . ومع العودة ذات مساء الى بيت الطلبة بالجيزة رأيتها مقبلة تحمل سلة . جميلة وجذابة ، طاوية هيكلها على جسيع ما قدر لى من هناء الجنة وعــذاب الجحيم . ماذا كان يعجبك من انشــاد المنشدين ؟ . لمــا بدا لاح منار الهدى ، ورأيت الهلال ووجه

الحبيب . لكن الشمس لم تغرب بعد . آخر مخيط ذهبى يتراجع من الكوة . أمامى ليلة طويلة . هى أولى ليالى الحرية . وحدى مع الحرية . أو مع الشيخ الغائب فى السماء . المردد لكلمات لا يمكن أن يعيها مقبل على النار . ولكن هل من مأوى آخر آوى اليه ؟ ..

الفصل الثالث



قلب صفحات جريدة « الزهـــرة » حتى عثر على ركن الأستاذ رءوف علوان . وراح يقـــرأ بشغف وهو لم يزل على مبعدة أذرع من بيت الشيخ على الجنيدى حيث قضى ليلته . لكن من أى مداد يستمد رءوف علوان وحيه ؟. ملاحظات عن موضة السيدات . مكبرات الصوت ، رد على شكوى زوجة

مجهولة ! . أفكار لذيذة حقا ولكن أين رءوف علوان ؟ . بيت الطلبة وتلك الأيام العجيبة الماضية . الحماس الباهر الممثل فى صـــورة طالب ريفى رث الثياب كبير القلب . والقلم الصادق المشع . ترى ماذا حدث للدنيا ؟. وماذا وراء هذه الأعاجيب والأسرار ؟ . وهل ثمة أحداث وقعت كأحداث عطفة الصيرفى ؟. حوادث نبوية وعليش والبنت الصغيرة المحبوبة التى أنكرت أباها . علىّ أن أقابله . الشيخ أعطانى فراشا فوق الحصـــيرة للنوم ولكنى فى حاجة الى نقـــود . علىّ أن أبدأ الحيـــاة من جديد يا أستاذ علوان . أنت لا تقل عظمة عن الشيخ على ، أنت أهم ما لدى فى هذه الحياة التى لا أمان لها . وتوقف عن السير أمام مبنى جريدة الزهـــرة بميدان المعارف . ضخم حقا بحيث لا يسهل السطو عليه ! . وهذا الطابور من السيارات المحدق به كحراس الجدران الرهيبة . وأصـــوات المطابع وراء قضبان البدروم كهينمة الراقدين فى العنابر . ودخل ضمن تيار الداخلين ثم وقف أمام مكتب الاســـتعلامات وســـأل بصـــوت غليظ النبرات :

ـــ الأستاذ رءوف علوان ؟

فرمقه الموظف فيما يشبه الامتعاض لنظرة عينيه اللوزيتين الجريئة لحد الوقاحة . وأجابه بجفاء :

ـــ الدور الرابع ..

قصد من توه المصعد فوقف بين قوم بدا فيهم غريب المنظر

ببدلته الزرقاء وحذائه المطاط ، وزاد من غرابته نظرته الحادة الجريئة وأنفه الأقنى الطويل . ولمح بين الواقفين فتاة فلعن فى سره نبوية وعليش وتوعدهما بالويل . وما أن انتهى الى طرقة الدور الرابع حتى مرق الى حجرة السكرتير قبل أن يتمكن الساعى من اعتراضه . وجد نفسه فى حجرة كبيرة مستطيلة زجاجية الجدار المطل على الطريق ، وليس بها موضع لجالس وسمع السكرتير وهو يؤكد لمتحدث فى التليفون أن الأستاذ رءوف مجتمع برئيس التحرير وأنه لن يعود قبل ساعتين . شعر بأنه غريب حقا ، لكنه وقف دون مبالاة ، يحملق فى الوجوه بوقاحة كأنما يتحداهم . وقديما كان يرمق أمثالهم بعين تود ذبحهم ، فما حال هؤلاء اليوم ؟. أما رءوف فلن يصفو له هنا . وما هذا المكان بالملتقى المناسب للأصدقاء القدامى . ورءوف اليوم رجل عظيم فيما يبدو . عظيم جدا كهذه الحجره . ولم يكن فيما مضى الا محررا بمجلة النذير ، مجلة منزوية بشارع محمد على . ولكنها كانت صوتا مدويا للحرية . ترى كيف أنت اليوم يا رءوف ؟ . هل تغير مثلك يا نبوية ؟ . هل ينكرنى مثلك يا سناء ؟ . ولكن بعدا لأفكار السوء . هو الصديق والأستاذ ، وسيف الحرية المسلول ، وسيظل كذلك رغم العظمة المخيفة والمقالات الغريبة وسكرتاريته الرفيعة . واذا كانت هذه القلعة لن تمكننى من عناقك فعن دفتر التليفون سأعرف مسكنك ..

افترش العشب الندى عند كورنيش النيل بشارع النيل ومضى ينتظر . انتظر طويلا على كثب من شجرة حجبت ضوء المصباح الكهربائى ، تحت سماء غاب عنها الهلال مبكرا تاركا النجوم تومض فى ظلمة رهيبة . وجــرت نسمة رقيقة لطيفة مقطرة من أنفاس الليــل عقب نهار أحمر طغى فيــه الصيف طغيانه . ولم تفارق عيناه الڤيللا رقم ١٨ لحظة واحدة ، موليا النيل ظهره شابكا راحتيه حول ركبتيه . يا لها من ڤيلا خالية من ثلاث جهات ، والجهة الرابعة حديقة مترامية . وأشباح هذه الأشجار تتناجى حول جسد الڤيلا الأبيض ، منظر قديم طالما شهد بالثراء وذكريات التاريخ . ولكن كيف ؟ ، ما الوسيلة ؟ ، وفى هذه المدة القصيرة ؟ ، حتى اللصوص لا يحلمون بذلك . اعتدت فى الماضى ألا أنظر الى ڤيللا هكذا الا عند رسم خطة للسطو عليها ، فكيف آمل اليوم مودة وراء ڤيللا ؟ !. رءوف علوان أنت لغز وعلى اللغز أن يتكلم ، أليس عجيبا أن يكون علوان على وزن مهران ؟! ، وأن يمتلك عليش تعب عمرى كله بلعبة الكلاب ؟.

ووثب واقفا عند توقف سيارة أمام باب الڤيللا . ولما رأى البواب يفتح الباب على مصراعيه عبر الطريق بسرعة خاطفة ثم تصدى للسيارة منحنيا قليلا ليراه صاحبها ، ولكن الرجل لم يعرفه فى الظلام فهتف بصوته الغليظ القوى :

ـــ أستاذ رءرف .. أنا سعيد مهران !

اقترب رأس الرجل من النافذة المفتوحة وهو يقول بصوت حلقى متزن :

ــ سعيد ! .. أووه ..

لم يستطع قراءة وجهه ، لكنه وجد فى لهجته ما شجعه ، ومضت هنيهة صمت وجمود دون أن يفتح باب السيارة ، ثم فتح الباب وجاءه الصوت قائلا :

ــ اركب ..

بداية حسنة . رءوف علوان هو رءوف علوان بالرغم من السكرتارية الزجاجية والڤيلا العجيبة . وانحدرت السيارة فى ممشى كضلع القيثارة متجهة نحو مدخل السلاملك .

ــ سعيد ، كيف حالك يا رجل ، ومتى خرجت ؟

ــ أمس ..

ــ أمس ؟

ــ نعم ، كان يجب أن أقصدك ولكنى شغلت بمسائل عاجلة ، وكنت فى حاجة الى الراحة فبت ليلتى عند الشيخ على الجنيدى ، أتذكره ؟

فقال وهما يغادران السيارة الى بهو الاستقبال :

ــ أووه ! .. شيخ المرحوم والدك ، شهدت حلقاته معك أكثر من مرة ..

ــ كانت مسلية !

ــ وكان يعجبنى غناء المنشدين .

وأضاء خادم النجفة فخطفت بصر سعيد بمصابيحها الصاعدة ونجومها وأهلتها . وعلى ضوئها المنتشر تجلت مرايا الأركان عاكسة الأضواء ، وتبدت التحف الثاوية على الحوامل المذهبة كأنما بعثت من ظلمات التاريخ ، وتهاويل السقف وزخارف الأبسطة والمقاعد الوثيرة والوسادة المستقرة عند ملقى الأقدام وأخيرا استقر البصر على وجه الأستاذ الممتلىء المستدير ، ذلك الوجه الذى طالما عشقه وحفظه عن ظهر قلب لطول ما أحدق فيه منصتا . وبينا راح الخادم يفتح بابا مطلا على الحديقة فى الجدار الأيسر ويكشف عنه ستائره مضى هو ينظر الى الأستاذ ويلحظ الروائع مسترقا . وسرعان ما جرى تيار دسم مفعما بالعبير ، واختلطت الأضواء بالشذا فأوشك رأسه أن يدور . وجهه امتلأ كوجه بقرة . وشيء خفى سرى فى شخصه جعله ممتنعا رغم طلاقة الوجه وحسن السلوك وابتسامة الثغر . وثمة رائحة سحرية لا تصدر الا عن دم أزرق رغم أنفه المائل الى الفطس وفكيه البارزين . وقلبه يخفق فى اشفاق ويتساءل عن المقر ان انهدم الركن الوحيد الباقى . وجلس رءوف على كنبة قريبة من باب الفراندا وأشار اليه أن يجلس على مقعد وثير يمثل جانبا من ضلع لمربع من المقاعد تطوق عامودا نورانيا شفافا موشى بصور أسطورية ، فجلس بلا تردد وبلا مبالاة كعادته . ومد الأستاذ ساقيه الطويلتين متسائلا :

— هل جئتنى فى الجريدة ؟

ـ نعم ولكنى اقتنعت بأنها مكان غير مناسب للقاء !

فضحك عن أسنان اكتنف منابتها لون أسود ثم قال :

ـ الجريدة عبارة عن دوامة لا تهدأ ، وهل انتظرت هنا طويلا ؟

ـ عمر كامل !

فضحك رءوف مرة أخرى وقال بلهجة ذات معنى :

ـ لا شك أنك عرفت هذا الطريق من قبل ؟ !

فضحك سعيد أيضا قائلا :

ـ طبعا ، عرفت فيه زبائن لا ينسى فضلهم ، ڤيلا فاضل باشا حسنين وقد خرجت من زيارتها بألف جنيه ، وقرط ماسى نادر من ڤيلا الممثلة كواكب ...

وجاء الخادم يدفع أمامه نضدا قامت عليه زجاجة وكأسان ، وجردل صغير أنيق بنفسجي اللون ملىء ثلجا ، وطبق نضد فوقه التفاح على هيئة هرم . وصحاف فواتح شهية ، وابريق مياه فضى . وأومأ الأستاذ للخادم فانسحب وراح يملأ بنفسه الكأسين ثم قدم احداهما الى سعيد ورفع الأخرى قائلا :

ـ صحة الحرية ..

وأفرغ سعيد كأسه دفعة واحدة على حين تناول رءوف رشفة ثم سأله :

ـ وكيف حال بنتك ؟ ، أوووه ، نسيت أسألك لم بت ليلتك عند الشيخ على ؟

انه لم يدر شيئا ولكنه ما زال يذكر أنه أنجب بنتا . وفى ايجاز بارد قاس سرد له تاريخ مأساته حتى قال :

ــ أمس زرت عطفة الصيرفى فوجدت مخبرا فى انتظارى كما توقعت ، وأنكرتنى ابنتى وصرخت فى وجهى ..

وملأ كأسا أخرى دون استئذان فقال رءوف :

ــ حكاية مؤسفة ، أما بنتك فمعذورة ، انها لا تتذكرك ، وسوف تعرفك وتحبك ..

ــ لم تعد لى ثقة فى جنسها كله ..

ــ هكذا أنت الآن ، أما غدا فمن يدرى ؟ ، ستغير رأيك بنفسك ، وهذا هو حال الدنيا ..

ورن جرس التليفون فقام رءوف اليه وتناول السماعة ثم أصغى قليلا ، وسرعان ما ابتهج وجهه بابتسامة عريضة ، فرفعه ومضى به الى الفراندا . تابعه سـعيد من أول الأمر بعينيـه الحادتين . امرأة ؟ ! . هذه الابتسامة وهذه الرحلة الى الظلام لا تكونان الا لامرأة . ترى أما زال أعزب ؟ . هاهما يجلسان جنبا الى جنب ، يتبادلان الشراب والحديث ، ولكن ثمة شعورا كالاحساس الخفى المنذر باكتشاف دمل يوسوس له بأن معاودة هذا اللقاء شيء عسير حقا . لا يدرى لماذا يطبق عليه . وهو يصدقه كانسان يعتمد كثيرا على غرائزه الملهمة . انه اليوم من أهل الطريق الذى لم يعتد زيارته الا معتديا . ولعله تورط فى الترحيب به مضطرا . ولعله تغير حقـا فلم يبق من الشخص

القديم الا ظل صورته . وجلجلت ضحكة فى الفراندا فازداد تشاؤما . وتناول تفاحة بهـدوء ومضى يقضمها . ما حياته الا امتداد لأفكار هذا الرجل الضاحك فى التليفون فاذا كان قد خانها فالويل له . وأخيرا عاد رءوف علوان من الفراندا فوضع التليفون على حامله ثم جلس وهو يبدو راضيا تماما :

ـ مباركة عليك الحرية ، هى كنز ثمين يعزى عن فقد أى شيء مهما غلا ..

فتناول قطعة من البسطرمة وهو يهز رأسه بالايجاب ولكن دون اهتمام جدى :

ـ وها أنت تخرج من السجن لتجد دنيا جديدة ..

وملأ كأسين ومضى سعيد يلتهم ألوان الطعام بشراهة . وحانت منه نظرة الى صاحبه فابتسم هذا بسرعة ليغطى على نظرة امتعاض ! . أنت مجنون ان تصورت أنه يرحب بك من قلبه . ما هى الا مجاملة بنت حياء . ولن يلبث أن يتبخر هذا الحياء . كل خيانة تهون الا هـذه . يا للفراغ الذى سيلتهم الدنيا . ومد رءوف يده الى علبة سجائر محلاة بنقوش صينية فى تجويف بالعامود المضيء فتناول سيجارة وهو يقول :

ـ يا عم سعيد ، زال تماما جميع ما كان ينغص علينا صفو الحياة ..

فقال سعيد من فم مكتنظ :

ـــ طالمــا هزتنا الأنباء فى السجن ، من كان يحلم بشىء كهذا ؟ !

ثم وهو يحدجه بنظرة باسمة :

ـــ لا حرب الآن !

ـــ لتكن هدنة ! ، ولكل جهاد ميدان ..

وألقى سعيد نظرة فيما حوله قائلا :

ـــ وهذا البهو الرائع كالميدان ..

وأسف على افلات هذه الملاحظة . ولمح فى عينى صاحبه نظرة باردة . ألا يعرف لسانك ما الأدب ! . وتساءل رءوف بهدوء غاضب :

ـــ أى وجه شبه بين هذا البهو والميدان ؟

فزاغ قائلا :

ـــ أقصد أنه مثال للذوق الرفيع ..

فضيق رءوف عينيه امتعاضا وقال بسخط واضح :

ـــ المراوغة عبث ، أفصح عما بنفسك ، أنا أفهمك وأنت خير من يعرف ذلك !

فضحك سعيد متوددا وهو يقول :

ـــ لم أقصد سوءا على الاطلاق ..

ـــ يجب أن تذكر دائما أنى أعيش بعرقى وكدى ..

ـــ هذا ما لا أشك فيه مطلقا ، بالله لا تغضب هكذا ..

فراح يدخن السيجارة بسرعة عصبية دون أن ينطق حتى اضطر سعيد الى التوقف عن الأكل وقال بلهجة المعتذر :

ـــ لم أتخلص بعد من جو السجن فيلزمنى وقت طويل حتى أسترجع آداب الحديث والسلوك ، ولا تنس أن رأسى ما زال دائرا من أثر المقابلة الغريبة التى أنكرتنى فيها ابنتى ..

والظاهر أن رءوف أعرب عن عفوه برفع حاجبيه الصاعدة شعيراتهما الى أعلى ، ولما رأى عينى الرجل تنتقلان بين وجهه وبين الطعام كأنما يستأذنه فى معاودة الأكل قال بهدوئه السابق :

ـــ كل ..

فهجم سعيد على بقايا الصحاف بلا تردد ولا تأثر بما كان حتى مسحها . وعنـــد ذلك قال رءوف ولعـــله رغب فى انهاء المقابلة :

ـــ يجب أن يتغير الحال تماما ، هل فكرت فى المستقبل ؟

فقال سعيد وهو يشعل سيجارة :

ـــ لم يسمح الماضى بعد بالتفكير فى المستقبل ..

ـــ يخيل الىّ أن النساء أكثر عددا من الرجال فلا تكترث لخيانة امرأة ، أما ابنتك فستعرفك يوما وتحبك ، المهم الآن أن تبحث لك عن عمل ..

فقال وهو ينظر الى تمثال اله صـــينى بدا آية فى الوقار والنعاس :

ـــ تعلمت فى السجن الخياطة !

فتساءل الأستاذ فى دهشة :

ــ أترغب فى أن تفتح دكان خياط ؟

فقال بهدوء :

ــ بكل تأكيد كلا ! ..

ــ ماذا اذن ؟

فقال وهو يحدجه بنظرة وقحة :

ــ لم أتقن فى حياتى الا حرفة واحدة ..

فتساءل كالمنزعج :

ــ أترجع الى اللصوصية ؟

ــ هى مجزية جدا كما تعلم ..

فصرخ بحدة :

ــ كما تعلم ! من أين لى أن أعلم ؟!

فرمقه بدهشة قائلا :

ــ لم تغضب هكذا ؟ ، قصدت أن أقول كما تعلم عن ماضىّ ، أليس كذلك ؟

وخفض رءوف عينيه كأنما يقنع نفسه بقوله ولكن وضح أنه لم يعد فى الامكان أن يعود وجهه الى صفائه الطبيعى . وقال بلهجة من يرغب فى الاجهاز على الحديث :

ــ سعيد ، ليس اليوم كالأمس ، كنت لصا وكنت صديقا لى فى ذات الوقت لأسباب أنت تعرفها ، ولكن اليوم غير الأمس ، اذا عدت الى اللصوصية فلن تكون الا لصا فحسب !

فاقتشر واقفا فى عصبية وهو يواجه اليأس فى صراحته القاسية ، ولكنه خنق انفعاله بارادة من حديد فعاد الى الجلوس وهو يقول بهدوء :

ــ اختر لى عملا مناسبا !

ــ أى عمل ، تكلم أنت وأنا مصغ اليك ..

فقال بسخرية خفية فى الأعماق :

ــ يسعدنى أن أعمل صحفيا فى جريدتك ! ، أنا مثقف ، وتلميذ قديم لك ، قرأت تلالا من الكتب بارشادك ، وطالما شهدت لى بالنجابة ..

فهز رءوف رأسه فى ضجر حتى لعب الضوء فوق شعره الأسود الغزير وقال :

ــ لا وقت للمزاح ، أنت لم تمارس الكتابة قط ، وأنت خرجت أمس فقط من السجن ، وألت تعبث وتضيع وقتى بلا طائل ..

فقال بامتعاض :

ــ اذن على أن أختار عملا حقيرا ؟

ــ لا عمل حقير على الاطلاق ما دام شريفا ..

غلبته المرارة بعد اليأس فلم يعد يبالى شيئا ، وبسرعة جرى ببصره فى أنحاء البهو الأنيق ، ثم قال فيما يشبه التحدى :

ــ ما أجمل أن ينصحنا الأغنياء بالفقر .. !

فكان جوابه أن نظر فى ساعته فقال سعيد برقة :

ـ أنا واثق من أننى أخذت من وقتك أكثر مما يجوز ..

فقال رءوف بصراحة شمس يوليو :

ـ نعم فأنا مرهق بالعمل !

فوقف وهو يقول :

ـ أشكر لك الضيافة والعشاء ونبل الأخلاق ..

وأخرج رءوف حافظة نقوده فأعطاه منها ورقتين من ذات الخمسة الجنيهات قائلا :

ـ حتى تفـرج ، ولا تؤاخذنى اذا قلت لك اننى مرهق بالعمل ، وانه من النادر أن تجدنى خاليا كما وجدتنى الليلة ..

فتناول الجنيهات باسما وصافحه بحرارة ، ثم قال بنبرة رجاء :

ـ ربنا يتم نعمته عليك ..

الفصل الرابع

هـذا هو رءوف علوان ، الحقيقة العارية ، جثة عفنة لا يواريها تراب . أما الآخر فقد مضى كأمس أو كأول يوم فى التاريخ أو كحب لبوية أو كولاء عليش . أنت لا تنخدع بالمظاهر فالكلام الطيب مكر والابتسامة شفة تتقلص والجود حركة دفاع من أنامل اليد ولولا الحياء ما أذن لك بتجاوز العتبة . تخلقنى ثم ترتد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد أن تجسد فى شخصى ، كى أجد نفسى ضائعا بلا أصل وبلا قيمة وبلا أمل ، خيانة لئيمة لو اندك المقطم عليها دكا ما شفيت نفسى . ترى أتقر بخيانتك ولو بينك وبين نفسك أم خدعتها كما تحاول خداع الآخرين ؟ ، ألا يستيقظ ضميرك ولو فى الظلام ؟ ، أود أن أنفذ الى ذاتك كما نفذت الى بيت التحف والمرايا بيتك ، ولكنى لن أجد الا الخيانة . سأجد نبوية فى ثياب رءوف أو رءوف فى ثياب نبوية أو عليش سدرة مكانهما وستعترف لى الخيانة بأنها أسمج رذيلة فوق الأرض . من وراء الظهر تبادلت الأعين نظرات مريبة قلقة مضطربة كتيار الشهوة التى يحملها . كالقطة الزاحفة على بطنها فى هيئة الموت نحو عصفورة سادرة .

وغلبت الانتهازية ثمالة الحياء والتردد فقال عليش سدرة فى ركن عطفة أو ربما فى بيتى « سأدل البوليس عليه لنتخلص منه » ، فسكتت أم البنت ، سكت اللسان الذى طالما قال لى بكل سخاء أحبك يا سيد الرجال . هكذا وجدت نفسى محصورا فى عطفة الصيرفى ولم يكن الجن نفسه يستطيع أن يحاصرنى ، وانهالت على اللكمات والصفعات . كذلك أنت يا رءوف ، لا أدرى أيكما أخون من الآخر ، ولكن ذنبك أفظع يا صاحب العقل والتاريخ ، تدفع بى الى السجن وتثب أنت الى قصر الأنوار والمرايا ، أنسيت أقوالك المأثورة عن القصور والأكواخ ؟ ، أما أنا فلا أنسى !

وبلغ جسر عباس فجلس على أريكة حجرية وانتبه الى الطريق لأول مرة . وقال بصوت مسموع كأنما يخاطب الظلام «خير البر عاجله ، الساعة وقبل أن يفيق من دهشته !» . لاسبيل الى التردد فمهنتك هى مهنتك ، صالحة وعادلة ، وبخاصة عندما تطبق على فيلسوفها . وعندما أفرغ من تأديب الأوغاد فسأجد فى الأرض متسعا للاختفاء . هل يمكن أن أمضى فى الحياة بلا ماض فأتناسى نبوية وعليش ورءوف ؟ ، لو استطعت لكنت أخف وزنا وأضمن للراحة وأبعد عن حبل المشنقة ولكن هيهات أن يطيب العيش الا بتصفية الحساب . لن أنسى الماضى لسبب بسيط هو أنه حاضر — لا ماض — فى نفسى . وستكون مغامرة الليلة خير ابتداء أفتتح به العمل ، وستكون مغامرة دسمة .

وجرى النيل كأمواج من الظلام تنغرس فى جنباتها أسهم الضياء المنعكسة من مصابيح الشاطىء . وساد صمت شامل مريح ، ثم دنت النجوم من الأرض عندما اقترب الفجر . وقام عن مجلسه فتمطى ثم سار على مقربة من الشاطىء نحو المكان الذى جاء منه . جعل يتقدم على مهل متحاشيا الأنوار الضئيلة الباقية حتى هذه الساعة من الفجر ، وتباطأ أكثر عندما لاح لعينيه القصر الخالى من نواحيه الثلاث . وراقب الطريق بحدة أرضه وأسوار القصور والشاطىء ثم استقرت عيناه على القصر . بدا القصر مسدل الجفون تحرسه الأشجار من كل جانب كالأشباح . نامت الخيانة فى هدوء بديع لا تستحقه البتة . مغامرة دسمة ستعطى ردا حاسما على خداع العمر كله . وعبر الطريق فى خطوات طبيعية دون تلفت أو حذر ، ثم سار بحذاء السور فى الشارع الجانبى وهو يتفحص ما أمامه بعناية شديدة ، فلما اطمأن الى خلو المكان مال فجأة لصق السور منغرزا فى الياسمين والبنفسج وتوقف عن أية حركة . ان يكن فى القصر كلب — غير صاحبه — فسيملأ الدنيا نباحا ، ولكن لم تند عن الصمت همسة واحدة . يا رءوف .. تلميذك قادم ليحمل عنك بعض متاع الدنيا . وتسلق السور بخفة وبأطراف محنكة كأنها أطراف قرد ولم تعقه الأغصان الكثيفة الملتفة الغارقة فى الأوراق والأزهار ، ثم اعتمد على قبضتيه ورفع جسمه بقوته الذاتية الى ما فوق الأسنان المدببة وهبط به حتى

اشتبكت ساقاه بالأغصان فى الداخل فلبد فيها ريثما يسترد أنفاسه ، وليراقب الحديقة المكتظة بالشجيرات والأشجار والظلمة . عليك أن تصعد الى السطح ومنه تهبط الى الداخل حتى تعرف طريقك ، لا آلة معك ولا بطارية ولا فكرة سابقة عن المكان . لم تسبقك نبوية اليه لتعمل غسالة أو خادمة بعض الوقت فهى اليوم مشغولة بعليش سدرة . وقطب بعنف ليطرد عنه هذه الأفكار ، ونزل بحذر الى الأرض ، ثم زحف على أربع متجها نحو جدار الفيللا . ودار مع البناء متحسسا الحيطان حتى عثر على ماسورة . وأخذ يتسلق بمهارة البهلوان . وكان السطح مقصده غير أنه مر بنافذة مفتوحة غير بعيدة منه ، وفى الحال قرر تجربتها . سدد ساقه نحو النافذة حتى انطرحت على حافتها ، وشد أعصاب يديه متنقلا بهما فوق كورنيش الحائط حتى استقر جميعه فوق حافة النافذة . وانزلق الى الداخل فوجد نفسه فى مكان حدس أنه مطبخ . وضايقته كثافة الظلمة فجد باحثا عن الباب ، وكان يتوقع ظلمة أكثف فى الداخل ، ولكنه حلم بحافظة نقود رءوف أو بعض التحف ، وكان عليه أن يتقدم . تسلل من الباب متلمسا الجدار بيديه ، وقطع مسافة غير قصيرة وكثافة الظلام تكاد تصده ، ثم أحس تيارا خفيفا من الهواء يلفح وجه . من أين يجيء الهواء ؟ . وانعطف مع انعطاف الجدار الأملس وتقدم مادا ذراعه محركا أصابعه حتى لمست أسلاكا بلورية مسدلة محدثة وسوسة خفيفة انقبض لها

قلبه . ستارة لا شك فى ذلك ، اقترب الآن من هدفه ، واتجه فكره نحو علبة الثقاب فى جيبه دون أن يمد لها يدا ، وفتح بخفة ثغرة دلف منها الى الداخل ، وضيق ما بين ذراعيه ليعيد الستارة الى وضعها الطبيعى دون صوت . وتقدم خطوة فارتطم بمقعد أو بقائم ما لا يدريه ، وتفادى منه وهو يرفع رأسه ملتمسا نورا خافتا ساهرا ـــ وقد تعلق أمله بالوصول اليه ـــ ولكنه رأى ظلاما مطبقا كالكابوس . وفكر فى اشـــعال عود ثقاب للحظة واحدة . وبغتة دهمه نور ســـاطع من كل ناحية . نور شديد انقض عليه كلكمة قاضية . انغلق جفناه بلا ارادة ولما فتحهما رأى رءوف علوان على بعد ذراعين . على بعد ذراعين فى روب طويل بدا فيه عملاقا ، ويده مدسوسة فى جيبه مشدودة كأنها تقبض على سلاح ، هكذا ظن . ونظرة عينيه الباردة زادت قلبه المهزوم برودة ، وانطباق شفتيه الناطق بالعداوة والكراهية . والصمت القاتل أثقل من سور السجن ، والسجان عبـــد ربه سيقول هازئا ما أسرع أن رجعت . وانطلق صوت نحاسى من وراء ظهره يتساءل :

ـــ ننادى البوليس ؟

فالتفت وراءه فرأى ثلاثة من الخـــدم يقفون صفا غير أن رءوف خرج عن صمته قائلا .

ـــ اذهبوا خارجا وانتظروا ..

ولما فتح الباب ثم أغلق وراءهم أدرك خطفا أنه باب خشبى

ذو زخارف عربيـــة محلى الرأس بحكمة أو مثـــل أو آية من الصدف . وأرجع رأسه من التفاتته ليتلقى النظرات العابســـة ويسمع صوته الخشن وهو يقول :

ــ من الغبــاء أن تجرب ألاعيبك معى أنا ، أنا فاهمك وحافظك عن ظهر قلب ..

لم ينبس ومضى يفيق من ضربة المفاجأة ولكن على استسلام كاليأس وان داخله شعور بأنه لن يسلم الى القبضة التى أفلت منها أمس أو هكذا شعر ..

ــ كنت فى انتظارك ، على أتم استعداد ، بل ورسمت لك طريق الســير ، وددت لو يخطىء ظنى ، ولكن أى سوء ظن فيك يخطىء ؟ !

غض بصره لحظات فرأى ما تحت قدميه من مشـــمع لامع ثم رفعهما دون أن يحاول الخروج عن صمته . ا

ــ لا فائدة ، لن تنتهى من حقارتك ، وستموت حقيرا ، وخير ما أفعله الآن أن أسلمك الى البوليس ..

فاختلج جفناه وانفرجت شفتاه فى عصبية ، فتساءل رءوف بحـــدة :

ــ ماذا جئت تريد ؟

فغض بصره مرة أخرى .

ــ أنت تفصح عن عداوتك ، نسيت الاحســـان وتركزت



فى الحقد والحسد ، انى أعرف أفكارك بقدر ما أعرف حركاتك ..

وبصوت خافت وبعينين تختفيان فى الأرض قال :

ــ رأسى دائر ، وما زال دائرا منذ خرجت من السجن ..

ــ كذاب ، لا تحاول خداعى ، أنت تتوهم أنى صرت واحدا من الأغنياء الذين كنت أحمل عليهم ، وعلى هذا الأساس أردت أن تعاملنى ..

ــ ليس الأمر كذلك ..

ــ اذن لم تسللت الى بيتى ؟ ، لم تريد أن تسرقنى ؟

تردد سعيد مليا ثم قال :

ــ لا أدرى ، لست فى حالة طبيعية ، وأنت لن تصدقنى !

ــ طبعا ، لأنك تعلم أنك كاذب ، لم تقتنع بكلماتى الطيبة ، ثار حسدك وغرورك ، اندفعت كالجنون نفسه كما هى عادتك ، ولك ما تشاء فستجد نفسك فى السجن مرة أخرى ..

فقال فى تسليم:

ــ اعذرنى ، ما زلت أعيش بعقلية السجن وما قبله ..

ــ لا عذر لك ، أنا أقرأ أفكارك ، قرأت كل جملة مرت بعقلك ، كل جملة ، الصورة الكاملة التى تتصورنى فيها ، والآن آن لى أن أسلمك للبوليس ..

فمد يده كالرجاء قائلا :

ــ كلا ..

ــ كلا ؟ ! ، ألا تستحقه ؟

ــ بلى ، ولكن كلا ..

فنفخ غاضبا وهو يقول :

ــ ان رأيتك مرة أخرى فسأسحقك كحشرة ..

وهم بالتحرك فى سبيل النجاة ولكنه صاح به :

ــ ارجع النقود !

فجمد بصره دقيقة ، ثم دس يده فى جيبه فأخرج الورقتين فتناولهما الآخر قائلا :

ــ لا ترنى وجهك مرة أخرى ..

عاد الى شاطىء النيل وهو لا يصدق أنه نجا ولكن راحة النجاة تكدرت بالهزيمة . وعجب تحت أنفاس الفجر الرطيبة كيف أنه لم ينتبه الى هوية الحجرة التى ضبط فيها وانه لم يكد يرى منها الا بابها المزخرف وأرضها الشمعية . واستسلم لرحمة الفجر الندية متعزيا الى حين عن كل شىء حتى عن ضياع الورقتين ، ثم رفع رأسه الى السماء فهاله لمعان النجوم المتألق فى هذه الساعة من الفجر ..

الفصل الخامس



حملق الرجال القليلون بأعين لا تصدق ، وقاموا قومة رجل واحد :

— يا أرض احفظى ما عليك !

— ليلة بيضا بالصلاة على النبى .

وأحدقوا به وعلى رأسهم معلم القهوة وصبيه وعانقوه

وقبلوا وجنتيه . وشد سعيد مهران على أيديهم واحدا فواحدا وهو يقول بامتنان :

ــ أشكرك يا معلم طرزان ، أشكركم يا اخوان ..

ــ متى ؟

ــ أول أمس .

ــ تفاءلنا خيرا بأخبار العيد .

ــ الحمد لله .

ــ وبقية الجدعان ؟

ــ بخير ، وكل شيء بأوان !

ولبثوا يتبادلون الأخبار حتى أخذه المعلم الى أريكته ورجاهم أن يعودوا الى مجالسهم فعادت القهوة الى هدوئها . لم يتغير شيء كأنه تركها بالأمس . الحجرة المستديرة ، النصبة النحاسية ، الكراسى الخشبية ذات المقاعد من القش المفتول ، الزبائن القلائل المعروفون الموزعون فى الأركان ، يحتسون الشاى ويعقدون الصفقات . ومن خلال النافذة الكبيرة والباب لاح الخلاء شاملا متراميا الى غير نهاية ، والظلام كثيفا لا تخففه بارقة ، والصمت مهيبا عدا ضحكات متقطعة يرمى بها الهواء من الخارج ، وجرى تيار جاف منعش ما بين الباب والنافذة يحمل طابع الصحراء من القوة والنقاء . تناول سعيد قدح الشاى من الصبى ثم رفعه الى فيه قبل أن يبرد . ومال نحو المعلم متسائلا :

ـــ كيف حال الشغل ؟

فلوى طرزان شفته السفلى فى امتعاض وقال:

ـــ ندر من يعتمد عليه من الرجال !

ـــ لم كفى الله الشر ؟

ـــ تنابلة كأنهم موظفو الحكومة !

فندت عنه نفخة ساخرة وقال :

ـــ التنبل على أى حال خير من الخائن ، بسبب خائن دخلت السجن يا معلم طرزان .

ـــ يا لطف الله !

فحدجه بنظرة نافذة متسائلا :

ـــ ألم تسمع بالخبر ؟

فهز المعلم رأسه فى أسف ولاذ بصمت مبين ، فهمس سعيد فى أذنه :

ـــ يلزمنى مسدس جيد !

فقال طرزان بلا تردد :

ـــ تحت أمرك ..

فربت على منكبه شاكرا ثم قال بشىء من الارتباك :

ـــ لكن ليس ..

فوضع أصبعه الغليظ على شفتيه قاطعا كلامه فى عتاب وهو يقول :

ـــ لا عاش من أحوجك الى اعتذار !

وأتى على ما فى القـــدح فى ارتياح ، ثم قام ماضـــيا الى النافذة . وقف وراءها ناصـــبا قامته النحيلة المفتولة المتوسطة الطول فبسط الهـــواء جناحى چاكتته كالشراع ، ومد البصر الى الخلاء المنتشر على الأرض المفعم بالظلام ، فتبدت النجوم فى السماء الصافية كالرمال وكأن القهوة جزيرة فى محيط أو طيارة فى سماء . وفى أسفل الهضـــبة التى تقوم عليها القهوة تحركت السجائر ـــ كالنجوم ـــ فى أيدى الجالسين فى الظلمة من رواد الهـــواء الطلق ، وعند الأفق الغـــربى لاحت أنوار العباســـية بعيدة جدا يشعر بعـــدها بمدى توغل القهـــوة فى الصحراء . وأطل من النافذة فصـــعدت اليه أصوات الجالسين حول الهضبة ، النازحين الى الصـــحراء طلبا للهواء والراحة . وانحدر اليهم صبى القهـــوة حاملا نارجيلة تتوهج جمراتهـــا ويتطاير منها الشرر مطقطقا . واحتدم السمر تتخلله الضحكات ، وقال صوت يافع ملتذا بالحديث فيما بدا :

ـــ دلونى على مكان واحد فى الأرض ينعم بالطمأنينة ؟

فأجابه آخر متحديا :

ـــ هذا المجلس ، ألا ينعم مجلسنا الآن بالطمأنينة ؟

ـــ تقول « الآن » وهذه هى المأساة .. !

ـــ لم نلعن القلق والمخـــاوف ، ألا تعفينا فى النهـــاية من التفكير فى المستقبل ؟

ـــ اذن فأنت عدو للسلام والاستقرار !

ـ اذا كان حبل المشنقة حول عنقك فالطبيعى أن تخشى الاستقرار .

ـ هـذه مسألة خاصـة يمكن معالجتها فيما بينك وبين عشماوى ..

ـ أنتم تثرثرون فى هناء لأنكم فى حمى الظلام والصحراء ولكنكم لن تلبثوا أن تعودوا الى المدينة فما الفائدة ؟

ـ المأساة الحقيقية هى أن عدونا هو صـديقنا فى الوقت نفسه ..

ـ أبدا المأساة الحقيقية هى أن صديقنا هو عدونا ..

ـ بل اننا جبناء ، لم لا نعترف بهذا ؟

ـ ربما ولكن كيف تتأتى لنا الشجاعة فى هذا العصر ؟

ـ الشجاعة هى الشجاعة .

ـ والموت هو الموت ..

ـ والظلام والصحراء هى هذا كله !

يا له من سمر . ماذا يقصدون ؟ . لكنك شـعرت بأنهم يعبرون عن خالك على نحو ما . نعم على نحو غامض كأسرار هذا الليل . أنت أيضا كانت لك يفاعة متوثبة . والقلب سكران برحيق الحماس . والسلاح تحصل عليه للجهاد ولا للاغتيال . وراء هذه الهضبة التى تقوم عليها القهوة كان فتية يتدربون على القتال بثياب رثة وضمائر نقية . وساكن القصر رقم ١٩ كان على رأسهم . على رأسهم يتمرن ويمرن ويلقى بالحِكَم .

المسدس أهم من الرغيف يا سعيد مهران ، المسدس أهم من حلقة الذكر التى تجرى اليها وراء أبيك ، وذات مساء سألك « سعيد ، ماذا يحتاج الفتى فى هذا الوطن ؟ » ثم أجاب بغير منتظر جوابك « الى المسدس والكتاب ، المسدس يتكفل بالماضى والكتاب للمستقبل ، تدرب واقرأ » . ووجهه وهو يقهقه فى بيت الطلبة قائلا : « سرقت ؟ ... هل امتدت يدك الى السرقة حقا ؟ ، براڤو ! ، كى يتخفف المغتصبون من بعض ذنبهم ، انه عمل مشروع يا سعيد ، لا تشك فى ذلك » وشهد هذا الخلاء مهارتك . قالوا انك الموت نفسه وان طلقتك لا تخيب . وأغمض عينيه مستسلما للهواء النقى واذا بيد توضع على كتفه فالتفت وراءه فرأى المعلم طرزان مادا يده الأخرى بالمسدس وهو يقول :

ــ نار على عدوك باذن الله ..

فتناوله ومضى يتفحصه ويختبره ، ثم سأله :

ــ بكم يا معلم ؟

ــ هدية !

ــ كلا ، كل ما أرجوه أن تمهلنى الى ميسرة ..

ــ كم طلقة تحتاج ؟

وعادا معا متجهين نحو أريكة المعلم . وعندما مرا بباب القهوة لعلعت فى الخارج ضحكة أنثوية فضحك المعلم طرزان وقال :

ـــ نور ، ألا تذكرها ؟

نظر سعيد الى الظلام خارج الباب فلم ير شيئا وتساءل :

ـــ أما زالت تجيء الى هنا ؟

ـــ من حين لآخر ، ستفرح لرؤيتك ..

ـــ صايدة ؟

ـــ طبعا ، ولد ابن صاحب مصنع حلوى ..

ولما جلسا على الأريكة نادى المعلم صبيه وقال له :

ـــ بصنعة لطافة قل لنور أن تأتى ..

لتأت لترى ماذا فعل الزمان بها . التى عبثا أرادت امتلاك قلبه . قلبك الذى كان ملكا خالصا للخائنة . وليس أقسى على القلب من أن يروم قلبا أصم . عندما تخاطب البلابل حجرا أو تداعب النسمة أسنانا مدببة . حتى هداياها اليه كان يهديها الى نبوية عليش . وربت المسدس وهو مستكن فى جيبه وعض على أسنانه . وظهرت نور عند الباب غير متوقعة للمفاجأة التى تنتظرها . فلما رأته توقفت على بعد خطوات فى ذهول . ونظر اليها باسما وفى امعان . بدت أنحل مما كانت واختفى وجهها تماما تحت المساحيق الدسمة . ونطق بالاغراء فستان أبيض انطلقت منه الأذرع والسيقان بلا حرج وقد شد حول جسدها كالمطاط حتى صرخ التهتك ، وعربد شعر رأسها القصير فى تيار الهواء . وسرعان ما هرعت اليه حتى تلاقت الأيدى وهى تقول :

ـــ حمداً لله على سلامتك ..

وضحكت ضحكة عصبية تدارى بها تأثرها ، ثم اندست بينه وبين المعلم طرزان .

ـــ كيف حالك يا نور ؟

فأجاب طرزان باسما :

ـــ هى كما ترى نور ونور !

وقالت المرأة :

ـــ بخير ، وأنت ؟ ، صحتك عال ، لكن عينيك ؟ ، أنا أعرفك وأنت غضبان !

فتساءل باسما :

ـــ كيف ؟

ـــ لا أدرى كيف أقول ، نظرة محمرة ! ، والانذار يتحرك فى شفتيك ..

ضحك ، ثم قال بأسف :

ـــ سيأتى صاحبك ليأخذك ...

فقالت وهى تهز رأسها لتزيح خصلة شعر عن عينيها :

ـــ انه لا يعرف رأسه من رجليه !

ـــ على أى حال فأنت مقيدة به ..

فرمته بنظرة ماكرة وهى تتساءل :

ـــ أتحب أن أدفنه فى الرمال ؟

ـــ ليس الليلة ، سنلتقى فيما بعد ..

ثم بشيء من الاهتمام :

ــ قيل انه لقطة ؟

ــ نعم،وسنذهب بسيارته الى مدفن الشهيد فهو يحب الخلاء !

وتجلت فى عينيه نظرة اهتمام لم تخف عليها ، وتساءل وكأنما يحدث نفسه :

ــ يحب الخلاء عند مدفن الشهيد ؟

اضطرب جفناها ، وازداد اضطرابها عندما التقت عيناهما ، ثم تساءلت فى عتاب :

ــ أرأيت أنك لا تفكر فى ؟

وهو لا يكاد يلقى بالا الى عتابها :

ــ لم ؟ ، أنت عزيزة جدا !

ــ بل أنت تفكر فى اللقطة !

فابتسم قائلا :

ــ انه ضمن تفكيرى فيك !

فقالت بقلق :

ــ ان انكشف أمرى ضعت ، أبوه قوى وأهله كالنمل ، هل أنت فى حاجة الى نقود ؟

ــ فى حاجة الى السيارة أشد !

وقام وهو يقرص خدها برقة ويقول :

ــ كونى طبيعية جدا ، لن يحدث شىء مما تخافين ، ولن تتجه اليك الظنون ، لست طفلا ، وسوف نلتقى بعد ذلك أكثر مما تصورين .

الفصل السادس

تجنّب الطريق الملاصق للثكنات ، واخترق الصحراء نحو مدفن الشهيد ليبلغه فى أقصر وقت . وكان كأنما يهتدى ببوصلة مركبة فى رأسه لسابق درايته بصحراء العباسية . وعندما لاحت له قبة المدفن الضخمة تحت ضوء النجوم راحت عيناه تفتشان عن المكان الذى تنزوى فيه السيارة . ودار حول المدفن وهو يحدّ بصره ولا يعثر على ضالته حتى بلغ ضلعه الجنوبى فتراءى له شبح هيكلها راقدا على بعد . مضى نحوها مصمما ، ثم ما لبث أن أحنى ظهره حتى انخفض رأسه الى مستوى ركبتيه واقترب منها فوضح لأذنيه أن الصمت يتخلخل بهمسات مغرقة فى السر . سيذعر قلب هانىء وتتبدد مسرة ولكن لا ذنب لك . الاختلال يطبق علينا مثل قبة السماء . وقديما قال رءوف علوان ان نوايانا طيبة ولكن ينقصنا النظام . واشتد اقترابه فيما يشبه الزحف حتى قبضت راحته على مقبض الباب ونفحته حرارة النفثات . شد على المقبض وجذب الباب بقوة هاتفا :

— لا تتحرك !

وانطلقت من عنف المفاجأة آهتان ، ولاح له الرأسان وهما يتطلعان اليه فى فزع . لوح بالمسدس قائلا بوحشية :



ــ سأطلق النار لأدنى حركة ، اخرجا ..

وجاءه صوت نور متوسلا :

ــ فى عرضك ..

وتساءل الآخر بصوت مختنق مبحوح كأنه ينطلق خلال رمل وحصى :

ــ ماذا ... ماذا تريد من فضلك ؟

ــ اخرجا ..

ألقت نور بجسمها الى الخارج قابضة على ثيابها فى كومة واحدة ، وتبعها الشاب وهو يدس نفسه فى بنطلونه متعثرا .

ولم يمهله فقرّب منه المسدس حتى هتف بصوت باك :

ــ لا .. لا .. لا تطلق .

فقال بصوت غليظ آمر :

ــ النقود !

ــ الجاكتة فى الداخل ..

فدفع نور الى الداخل قائلا :

ــ ادخلى أنت ..

فدخلت متأوهة من عنف الدفعة وهى تردد :

ــ فى عرضك اتركنى !

ــ هاتى الجاكتة ..

وتناولها منها ، وبسرعة أخذ المحفظة ورماه بها آمرا :

ــ عندك دقيقة لتنجو بحياتك !

انطلق الشاب فى الظلام كالشهاب . وارتمى هو داخل السيارة بسرعة فائقة ، وسرعان ما أدار المحرك فاندفعت مدوية . وأكملت ارتداء ثيابها وهى تقول :

ـ فزعت حقيقة كأنى لم أكن أتوقعك !

فقال والسيارة تنطلق بسرعة مخيفة :

ـ بلى ريقك ..

فأعطته زجاجة تناول منها جرعة ثم ردها اليها ففعلت مثله ثم قالت :

ـ ركبه سابت ، مسكين !

ـ قلبك أبيض ، أما أنا فلا أحب أصحاب المصانع ..

فاعتدلت فى جلستها وهى تقول بلهجة ذات معنى :

ـ الحقيقة أنك لا تحب أحدا !

ولم يجد رغبة فى المغازلة فلم يرد ، وبدا أن السيارة تتجه نحو العباسية فتوسلت اليه قائلة :

ـ سيرونى معك !

وكان يفكر فى ذلك أيضا فمال مع الطريق المتفرع الذى يفضى فى النهاية الى الدراسة . وخفف من السرعة قليلا ، ثم راح يقول :

ـ قصدت قهوة طرزان لأحصل على مسدس ولأتفق أمكن مع سائق تاكس من زملائنا القدامى فانظرى كيف رمى لى الحظ بهذه السيارة .

ـــ ألا ترى أننى نافعة دائما ؟

ـــ دائما ، وكنت رائعة ، لم لا تشتغلين ممثلة ؟

ـــ ولكنى فزعت أول الأمر حقيقة ..

ـــ وبعد ذلك ؟

ـــ أرجو أن أكون قد أتقنت دورى حتى لا يشك فى ..

ـــ لم يكن فى رأسه عقل ليشك فى أحد ..

واتجه رأسها نحوه ثم سألته :

ـــ لم تريد المسدس والسيارة ؟

ـــ لزوم العمل ..

ـــ يا خبر ! ، متى خرجت من السجن ؟

ـــ أول أمس .

ـــ وتعود الى التفكير فى ذلك ؟

ـــ هل يسهل عليك تغيير صنعتك ؟

فلم تجبه ونظرت الى الطريق المظلم الذى تلتمع أرضه بضوء السيارة وقد اقترب الجبل عند المنعطف كقطعة من الليل أشد كثافة ، ثم قالت برقة :

ـــ أتدرى كم حزنت عندما علمت بسجنك ؟

ـــ كم ؟

بشىء من الحدة :

ـــ متى تكف عن السخرية ؟

ـــ لكنى جاد جدا وواثق من صدق قلبك ..

ـــ أما أنت فلا قلب لك ..

ـــ حجزوه فى السجن كما تقضى التعليمات ..

ـــ أنت داخل السجن بلا قلب ..

لم الالحاح على حديث القلوب . اسألى الخائنة واسألى الكلاب واسألى البنت التى أنكرتنى .

ـــ سنوفق يوما الى العثور عليه ..

ـــ وأين تبيت هذه الليلة ؟.. هل تدرى زوجتك أين أنت ؟

ـــ لا أظن !

ـــ هل أنت ذاهب الى بيتك ؟

ـــ لا أظن ، ليس الليلة على أى حال ..

فقالت برجاء :

ـــ تعال الى بيتى ..

ـــ تسكنين وحدك ؟

ـــ شارع نجم الدين وراء قرافة باب النصر ..

ـــ رقمه ؟

ـــ البيت الوحيد فى الشارع ، تحته وكالة خيش ، ووراءه القرافة ..

ضحك سعيد قائلا :

ـــ يا له من موقع فريد !

فجارته فى ضحكه ثم قالت :

ــ لا يعرفنى هناك أحد ، ولم يزرنى فيه أحد ، ستكون أول رجل يدخله ، وشقتى فى أعلى دور ..

وانتظرت كلمته ولكنه شغل بمراقبة الطريق الذى ضاق عرضه ما بين الجبل وبين البيوت ابتداء من مسكن الشيخ على الجنيدى ، ثم أوقف السيارة عند رأس الدراسة والتفت اليها قائلا :

ــ هنا مكان مناسب لنزولك ..

ــ ألا تأتى معى ؟

ــ سآتى فيما بعد ..

ــ أين تذهب فى هذه الساعة من الليل ؟

ــ اذهبى من فورك الى القسم ، واحكى لهم ما حدث بالحرف كأنك لم تشاركى فيه ، وأعطى لهم أوصافا بعيدة عنى كل البعد ، أبيض سمين فى خده الأيمن أثر جرح قديم ، قولى أنى خطفتك وسرقتك واعتديت عليك ..

ــ اعتديت على ؟

فاستطرد جادا رغم ملاحظتها :

ــ وأن ذلك كان فى صحراء زينهم ، وأنى قذفت بك خارجا ثم هربت بالسيارة ..

ــ وهل تزورنى حقا ؟

ــ نعم ، أعدك بهذا وعد رجل ، هل تحسنين التمثيل فى القسم كما فعلت فى السيارة ؟

ــ ان شاء الله ..

ــ مع السلامة ..

ثم انطلق بالسيارة

الفصل السابع



قمة النجاح أن يقتلا معا ، نبوية وعليش . وما فوق ذلك أن يتصفى الحساب مع رءوف علوان ، ثم الهرب ، الهرب الى الخارج ان أمكن . ولكن من يبقى لسناء ؟ . الشوكة المنغرزة فى قلبى . أنت تندفع بأعصابك بلا عقل . عليك أن تنتظر طويلا وتدبر أمرك ثم تنقض كالحدأة . الآن لا فائدة من الانتظار .

أنت مطارد . منذ علم بالافراج عنك وأنت مطارد . وبحادثة السيارة ستشتد المطاردة . ومحفظة ابن صاحب المصنع لا تحوى الا جنيهات معــدودات فهذا أيضا من ســوء الحظ . ان لم تضرب سريعــا انهار كل شيء . ولكن من يبقى لســناء ؟ . الشوكة المنغرزة فى قلبى . المحبــوبة رغم انكارها لى . هل أترك أمك الخائنة اكراما لك ؟ . أريد جوابا فى الحال . كان يحوم حول البيت القائم على مفرق ثلاث عطفات بحارة سكن الامام فى ظلمة حالكة ، والســيارة تنتظر فى نهاية الطريق من ناحية ميدان القلعة . أغلقت الدكاكين وخلا الطريق ، وظاهر أن أحدا لم يكن يتوقعه . فى هذه الساعة يأوى كل مخلوق الى جحره . لا ينتظر أن يدهمه أحد ليحاســبه . وربما أعد عدته ولكنه — هو — لن ينثنى عن عزمه . ولو عاشت سناء وحيدة العمر كله . ذلك أن الخيانة بشعة جداً يا أستاذ رءوف . وتطلع الى نوافذ البيت ويده قابضة على مسدسه فى جيبه . الخيانة بشعة يا عليش . ولكى تصفو الحياة للأحياء يجب اقتلاع الخبائث الاجرامية من جذورها . واقترب من باب البيت ملاصقا للجدار ثم دخل . وصعد السلم فى حذر شديد . وظلام دامس مارا بالدور الأول فالثانى ثم الثالث . ها هو الباب المغلق على أدنأ النوايا والشهوات . من سيفتح اذا طرق الباب ؟ . هل تجىء نبوية ؟ . هل يكمن المخبر فى مكان ما ؟ . النار تنتظر المجرمين . ولو اضطر الى اقتحام الشقة . لا بد أن يعمل ، وأن يعمل فى

الحال ، فحرام أن يتنفس عليش سدرة يوما كاملا وسعيد مهران طليق . وستفوز بالهرب سالما . كما فزت عشرات المرات . وكما تتسلق العمارة فى ثوان ، وكما تثب من الدور الثالث فتصل الأرض سالما ، وكما تطير اذا شئت . وطَرْق الباب يبدو ضروريا ولكنه سيثير الريب ، وبخاصة فى هذه الساعة ، وستصوت نبوية حتى تملأ الدنيا غبارا ، ويجيء الأنذال ؛ ويظهر المخبر أيضا . فلتحطم الشراعة . هذه هى الفكرة التى كانت تدور فى رأسه وهو قادم بالسيارة من بعيد ، ها هو يعود اليها أخيرا . وأخرج مسدسه ، ووجه منه ضربة الى زجاج الشراعة من خلال القضبان الملتوية فتحطم وتناثر محدثا صوتا كالصراخ المبحوح فى صمت الليل . اقترب من الباب حتى كاد يلتصق به ، وصوب مسدسه الى الداخل ، والتظر بقلب خافق وعين غائصة فى ظلمة الردهة . وترامى صوت يصيح « من ؟ » . صوت رجل ، صوت عليش سدرة ، ميّزه رغم نبض الصدغ المدوّى . وفتح باب فى الناحية اليسرى فخرج منه ضوء خفيف ، ثم لاح شبح رجل يتقدم فى حذر . ضغط سعيد على الزناد فانطلقت الرصاصة كصرخة عفريت فى الليل . وصرخ الرجل بدوره وتهاوى فأدركه بأخرى قبل أن يستقر فوق الأرض . وانطلق صراخ حاد مرتعب مستغيث بائس ، صوت نبوية فصاح بها « سيأتى دورك ، لا مهرب منى ، أنا الشيطان نفسه » . واستدار ليهرب ، ومضى يثب فوق الدرجات بلا

حرص حتى بلغ بئر السلم فى ثوان . وقف يتنصت لحظة ثم مرق من الباب ، فسار على كثب من الجدار فى هـــدوء . ثم سمع نوافذ وهى تفتح وأصواتا وهى تتلاقى فى تســـاؤل ونداءات غامضة . وبلغ موقف السيارة عند رأس الطريق فجذب بابها ودخل . وعند ذاك لمح شرطيا قادما يجـــرى من الميدان نحو عطفة سكة الامام فغاص فى أرض السيارة . وواصل الشرطى جريه نحو الصراخ فلبث فى مكمنه حتى اطمأن الى بعده من وقع قدميه ثم نهض فى حذر شديد فجلس وراء عجلة القيادة وانطلق بالسيارة دون ابطاء . ودار مع الميدان فى سرعة طبيعية والضجة تلاحق حواسه ، ولكنها استقرت فى أعصابه حتى بعد انقطاعها عن حواسه . ولفه ذهول شـــامل فساق السيارة بلا وعى . القاتل . هناك رءوف علوان ، الخائن الرفيع الممتـــاز ، أهم فى الواقع من سدرة وأخطر . القاتل ، أنت من زمرة القتلة ، جنسية جديدة ، ومصير جديد ، خطف أرواح خبيثة بعد خطف أشياء ثمينة . سيأتى دورك ، لا مهرب منى ، أنا الشيطان نفسه . بفضـــل سناء وهبتك الحياة ، لكنى أحطتك بعقـــاب أشد من الموت ، هو الخوف من الموت ، الذعـــر الأبدى ، لن تذوقى للراحة طعما ما دمت حيا . انحدرت السيارة فى شارع محمد على وما زال يسوقها بلا وعى ولا فكرة عنده البتة عن المكان الذى يقصده . الآن يردد كثيرون اسم القاتل ، فعلى القاتل أن يختفى ، عليه أن يحـــذر ما أمكنه حبل المشـــنقة . لا تمكن

عشماوى من أن يسألك « ماذا تطلب ؟ » وعلى الحكومة أن تجود بهذا السؤال فى مناسبة أفضل . وانتبه الى نفسه فاذا بالسيارة تقطع آخر شوط فى شارع الجيش مندفعة نحو العباسية فانزعج لهذه العودة الغريبة الى المكان الخطر . وضاعف من سرعتها حتى بلغ منشية البكرى فى دقائق . ثم وقف عند أول شارع متفرع من الطريق العام . وتركها فى هدوء دون أن يلتفت يمنة أو يسرة . سار على مهل كأنه يتريض ، وشعر بخمود ، ثم بألم كأنه رد فعل للمجهود العصبى الشديد الذى بذله . لا مأوى لك الساعة . ولا أى ساعة . نور ؟ . من المجازفة أن يذهب اليها الليلة بالذات ، ليلة التحقيق والشبهات . والظلام يجب أن يمتد الى الأبد ..

الفصل الثامن

دفع باب مسكن الشيخ فأطاع دون مقاومة ، ثم دخل
ورده وراءه . وجد نفسه فى الحوش غير المسقوف ، ولاحت
النخلة فارعة كأنها ممتدة فى الفضاء حتى النجوم الساهرة ،
فقال لنفسه يا له من مكان صالح للاختفاء ! . وحجرة الشيخ
مفتوحة بالليل كما هى بالنهار وغارقة فى الظلمة وكأنها تنتظر
أوبته فمضى اليها فى هدوء . سمع الصوت يغمغم فلم يميز من
غمغمته الا « الله » . واستمر يغمغم كأنه لم يشعر أو لا يريد أن
يشعر بدخوله . انزوى فى ركن باليسار جنب كتبه ، وانحط
على الحصيرة ببدلته وحذائه المطاط ومسدسه ، ثم مد ساقيه
واستند الى ذراعيه ملقيا برأسه الى الوراء فى اعياء شديد .
رأس كخلية النحل ، وأين المفر ؟ . تريد أن تستعيد سماع
الطلق النارى ، وصوات نبوية ، وأن تسعد بأنك لم تسمع
لسناء صرخة واحدة . ويحسن أن تقول للشيخ « السلام
عليكم » ، ولكن نبرات صوتك عاجزة . عجز مفاجىء كالغرق .
وكنت تظن أنك ستموت نوما بمجرد أن يمس جلدك الأرض ! .
تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم

الى ذكر الله ، متى ينام هـــذا الرجل الغريب ؟ . لكن الرجل الغريب ترنم بصوت مرتفع نوعا لأول مرة :

الوجد عنـــدى جحود ما لم يكن عن شهودى

ثم قال بصوت خيل اليه أنه ملأ الحجرة « انفتحت عيون قلوبهم وانطبعت عيون رءوسهم » . انتزع من آلامه ابتسامة وقال لنفسه : لذلك فهو لا يشعر بى . ولكنى أنا أيضا لا أشعر بنفسى . وبغتة سبح الأذان فوق أمواج الليل الهادئة . وذكر ليلة قضاها مسهدا حتى الأذان شوقا الى سعادة موعودة فى النهار التالى لم يعد يذكر عنها شيئا . ونهض عند سماعه الأذان هاتنا بالخلاص من رقاد أليم فتطلع من النافذة الى زرقة الفجر وابتسامة المشرق وفرك يديه حبورا بالسعادة الوشيكة التى لم يعد يذكر عنها شيئا . لذلك فهو يحب الفجر للنغمة والزرقة والابتسامة والسعادة المنسية . وها هو الفجر مرة أخرى ولكنه من الاعياء لا يستطيع حراكا ولا مسدسه . وقام الشيخ للصلاة فأشعل المصباح ، ولم يبد انتبـــاها لوجوده . وفرش سجادة الصلاة واتخذ مكانه فوقها واذا به يتساءل :

ــ ألا تصلى الفجر ؟

فلم يستطع جوابا ، الى هذا الحد بلغ منه الاعياء . وأقام الشيخ الصلاة ، وما لبث سعيد أن غاب عن الوجود . حلم بأنه يجلد فى السجن رغم حسن سلوكه . وصرخ بلا كبرياء وبلا مقاومة فى ذات الوقت . وحلم بأنهم عقب الجلد مباشرة سقوه

حليبا . ورأى سناء الصغيرة تنهال بالسوط على رءوف علوان
فى بئر السلم . وسمع قرآنا يتلى فأيقن أن شخصا قد مات .
ورأى نفسه فى سيارة مطاردة عاجزة عن الانطلاق السريع لخلل
طارىء فى محركها واضطر الى اطلاق النار فى الجهات الأربع ،
ولكن رءوف علوان برز فجأة من الراديو المركب فى السيارة
فقبض على معصمه قبل أن يتمكن من قتله وشد عليه بقوة
حتى خطف منه المسدس ، عند ذاك هتف سعيد مهران : اقتلنى
اذا شئت ولكن ابنتى بريئة ، لم تكن هى التى جلدتك بالسوط
فى بئر السلم وانما أمها ، أمها نبوية وبايعاز من عليش سدرة ،
ثم اندس فى حلقة الذكر التى يتوسطها الشيخ على الجنيدى
كى يغيب عن أعين مطارديه فأنكره الشيخ وسأله : من أنت
وكيف وجدت بيننا فأجابه بأنه سعيد مهران ابن عم مهران
مريده القديم وذكّره بالنخلة والدوم والأيام الجميلة الماضية ،
فطالبه الشيخ ببطاقة الشخصية فعجب سعيد وقال ان المريد
ليس فى حاجة الى بطاقة ، وانه فى المذهب يستوى المستقيم
والخاطىء فقال له الشيخ انه يطالبه بالبطاقة ليتأكد من أنه من
الخاطئين لأنه لا يحب المستقيمين فقدم له مسدسه وقال له ثمة
قتيل وراء كل رصاصة ناقصة فى ماسورته ولكن الشيخ أصر
على مطالبته بالبطاقة قائلا ان تعليمات الحكومة لا تتساهل فى
ذلك فعجب سعيد مرة أخرى وتساءل عن معنى تدخل الحكومة
فى المذهب فقال الشيخ ان ذلك كله تم بناء على اقتراح للأستاذ

الكبير رءوف علوان المرشح لوظيفة شيخ المشايخ فعجب سعيد للمرة الثالثة وقال ان رءوف بكل بساطة خائن ولا يفكر الا فى الجريمة فقال الشيخ انه لذلك رشح للوظيفة الخطيرة ووعد بتقديم تفسير جديد للقرآن الشريف يتضمن كافة الاحتمالات التى يستفيد منها أى شخص فى الدنيا تبعا لقدرته الشرائية ، وأن حصيلة ذلك من الأموال ستستغل فى انشاء نواد للسلاح ونوادللصيد ونواد للانتحار فقال سعيد : انه مستعد أن يعمل أمينا للصندوق فى ادارة التفسير الجديد وسيشهد رءوف علوان بأمانته كما ينبغى له مع تلميذ قديم من أنبه تلاميذه ، وعند ذاك قرأ الشيخ سورة الفتح وعلقت المصابيح بجذع النخلة وهتف المنشد يا آل مصر هنيئا فالحسين لكم ..

وفتح عينيه فرأى الدنيا حمراء ولا شىء فيها ولا معنى لها ثم رأى الشيخ متربعا فى هدوء يكتنفه البياض الناصع من الجلباب الفضفاض والطاقية واللحية ، فلما ندت عن سعيد حركة لدى استيقاظه نظر الشيخ اليه فى هدوء أيضا . وجلس سعيد فى عجلة ورنا الى الشيخ كالمعتذر ، وفى الوقت نفسه دهمته الذكريات فى سرعة اللهب . وقال الشيخ :

ـــ نحن فى العصر وأنت لم تذق طعاما ..

نظر سعيد الى الكوة ثم أعاد الى الشيخ النظر وهو يتمتم فى ذهول :

ـــ العصر !

ـ نعم ، قلت أدعه فى نومه ، وهداية الله تنزل فى أى حال تريدها مشيئته ..

وداخله القلق ، ترى ألم يره أحد فى نومه طوال النهار ؟

ـ كنت أشعر فى نومى بدخول أناس كثيرين ..

ـ أنت لم تشعر بشىء ، ومع ذلك فقد جاء واحد بلقمة الغداء ، وجاء آخر فكنس المكان وسقى الصبارة والنخلة وفرش الحوش استعدادا لاستقبال المحبين !

فسأل باهتمام :

ـ متى يجيئون يا مولاى ؟

ـ مع المغرب ، متى جئت أنت ؟

ـ مع الفجر ..

وصمت مليا ، ثم مسح الشيخ على لحيته وقال :

ـ أنت تعيس جدا يا بنى !

فتساءل فى قلق :

ـ لمه ؟

ـ نمت نوما طويلا ولكنك لا تعرف الراحة ، كطفل ملفى تحت نار الشمس ، وقلبك المحترق يحن الى الظل ولكن يمعن فى السير تحت قذائف الشمس ، ألم تتعلم المشى بعد ؟ !

فقال سعيد وهو يدعك عينيه اللوزيتين المحمرتين :

ـ فكرة مزعجة أن يراك الآخرون وأنت نائم ..

فقال الشيخ بلا اكتراث :

ــ من غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه ..

ومر بيده بخفة فوق جيب المسدس وساءل نفسه ترى ماذا يصنع هذا الشيخ لو أنه صوب نحوه مسدسه ؟ . متى يمكن أن يهتز هدوءه المثير ؟ . وعاد الشيخ يسأله :

ــ أنت جائع ؟

ــ كلا .

فقال وشبه ابتسامة تلوح فى عينيه :

ــ اذا صح الافتقار الى الله صح الغنى بالله ..

ــ اذا !

ثم بلهجة ساخرة :

ــ مولاى ، ماذا كنت تفعل لو ابتليت بمثل زوجتى ولو أنكرتك كما أنكرتنى ابنتى ؟

فلاحت فى العينين الصافيتين نظرة رثاء وقال :

ــ العبد لله لا يملكه مع الله سبب ..

اقطع لسانك قبل أن يخونك ويعترف . أنت تود أن تعترف له بكل شىء . ولعله ليس فى حاجة الى ذلك ، لعله رآك وأنت تطلق النار ، لعله يرى أكثر من ذلك . وارتفع صوت تحت الكوة ينادى بجريدة أبو الهول فقام بسرعة الى الكوة فناداه ثم مد يده بالقرش وعاد بالجريدة الى مجلسه وقد نسى الشيخ تماما . التصقت عيناه بعنوان ضخم أسود « جريمة شنيعة بالقلعة ! » وجرت عيناه على الأسطر بسرعة جنونية . ولم يفهم

شيئا . أهى جريمة أخرى ؟ . لكن ها هى صورته ، ها هى صورة
نبوية ، ها هى صورة عليش سدره . فمن المضرج فى دمه ؟ .
قصته بارزة أمام عينيه ، فضيحة مذاعة كالغبـــار الخماسينى ،
الرجل الذى خرج من السجن ليجد امرأته زوجة لأحد أتباعه ،
ولكن من المضرج فى دمه ؟ . انه لا يفهم شيئا وينبغى أن يقرأ
من جديد . ينبغى أن يعرف من المضرج فى دمه وكيف استقرت
رصاصته فى صدره . القتيل رجل آخر يرى صورته لأول مرة
فى حياته . اقرأ من جديد . لقد ترك عليش سدرة ونبوية بيتهما
فى نفس اليوم الذى زارهما فيه بحضـــور المخبر والأعوان ،
وحلت مكانهما فى الشقة أسرة جديدة ، ولعلهـــا دفعت خلو
رجل . الصـــوت الذى سمعه لم يكن صوت عليش ســـدرة .
الصوات الذى سمعه لم يكن صـــوات نبوية ، الجسم الذى
سقط كان جسم شعبان حسين العامل بمحل الخردوات بشارع
محمد على . سعيد مهران جاء ليقتل زوجته وصـــاحبه القديم
فقتل الساكن الجديد شعبان حسين . وشهد أحد جيران عليش
بأنه رأى سعيد مهران وهو يغادر البيت عقب ارتكاب الجريمة
وأنه نادى الشرطى ولكن صوته ضاع فى الضجة التى شملت
الطريق كله . أى هزيمـــة جنـــونية ، أى جريمة بلا جدوى ،
وسيطارده حبل المشنقة وعليش آمن ، هذه هى الحقيقة كأنها
جوف قبر انكشف . وانتزع عينيه من الجريدة فرأى الشيخ على
الجنيدى ينظر الى السماء من خلال الكوة ويبتسم . ولسبب ما



أخافته ابتسامته . ورغب فى أن يقف أمام الكوة ليمد بصره فى خط نظر الشيخ لعله يرى فى السماء ما جعله يبتسم . لكنه لم ينفـذ رغبته . ليبتسم وليطلع على مكنونه اذا شـاء ولكن سيجىء المريدون عما قريب وربما تعرف عليه بعضهم ممن رأوا صورته فى الجريدة . آلاف وآلاف يتأملون صورته الآن بغرابة وخوف ولذة بهيمية خفية . قضى عليه بلا جـدوى ، مطارد وسيظل مطاردا الى آخر لحظة من حياته ، وحيد عليه أن يحذر حتى صورته فى المرآة ، حى بلا حياة كجثة محنطة ، سيجرى من جحر الى جحر كفأر يتهـدده السم والقطط وهـراوات المشمئزين ، كل هذا وأعداؤه يمرحون . والتفت الشيخ نحوه وقال برقة :

ـ أنت متعب ، قم فاغسل وجهك ..

فقال بضيق وهو يطوى الجريدة :

ـ سأذهب وأريحك من منظرى ..

فقال فى مزيد من الرقة :

ـ هذا مأواك ..

ـ نعم ، ولكن لم لا يكون لى مأوى آخر ؟

فقال وهو يطرق :

ـ لو كان لك آخر ما جئتنى !

اذهب الى الجبل حتى يهبط الظلام . لا تغادره حتى يهبط الظلام . تحاش الضوء ولذ بالظلام . تعب بلا فائدة . ذلك أنك

قتلت شعبان حسين . من أنت يا شعبان ؟ . أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفنى . هل لك أطفال ؟ . هــل تصورت يوما أن يقتلك انسان لا تعرفه ولا يعرفك . هل تصورت أن تقتل بلا سبب ؟. أن تقتل لأن نبوية سليمان تزوجت من عليش سدرة ؟ ، وأن تقتل خطأ ولا يقتل عليش أو نبوية أو رءوف صــوابا ؟ وأنا القاتل لا أفهم شيئا ولا الشيخ على الجنيدى نفسه يستطيع أن يفهم . أردت أن أحل جانبا من اللغز فكشفت عن لغز أغمض .

وتنهد بصوت مسموع ، وعاد الشيخ يقول :

ــ يا لك من متعَب !

ــ ودنياك هى المتعبة .

فقال الشيخ فى رضى :

ــ تتغنى بهذا أحيانا .

ونهض ، ثم قال وهو يهم بالذهاب :

ــ وداعا يا مولاى ..

فقال الشيخ كالمحتج :

ــ قول لا معنى له على أى وجه قلته ، قل الى اللقاء ..

الفصل التاسع



يا له من ظلام ! . انقلب خفاشا فهو أصلح لك . وهـذه الرائحة الدهنية المتسربة من باب شقة ما فى هذه الساعة من الليل ! . متى تعود نور وهل تعود بمفردها ؟ . هل يمكن أن أبقى فى بيتها حتى أنسى ؟ . لعلك تظن يا رءوف أنك تخلصت منى الى الأبد ؟ . بهذا المسدس أستطيع أن أصنع أشياء جميلة على

شرط ألا يعاكسنى القدر . وبه أيضا أستطيع أن أوقظ النيام فهم أصل البلايا . هم خلقوا نبوية وعليش ورءوف علوان ..

وخيل اليه أنه سمع وقع أقدام صاعدة ، ثم تأكد من ذلك ونظر من فوق الدرابزين . فرأى نورا خافتا يتحرك فى بطء على الجدران ، نور عود ثقاب كما ظن . واقتربت الأقدام ثقيلة متمهلة فقرر أن ينبهها الى وجوده تفاديا من مفاجأة مزعجة . وتنحنح فجاء صوتها يسأل فى ارتياع :

ـــ من ؟

فأدلى برأسه الى أقصى حد ممكن وقال هامسا :

ـــ سعيد مهران ..

وأسرعت الأقدام فى خفة حتى انتهت الى مكانه وهى تلهث والعود يلفظ أنفاسه . وقبضت على عضده فى انفعال ، وبنبرة تنازعها الابتهاج وتقطع الأنفاس قالت :

ـــ أنت ! .. ، يا كسوفى .. ، انتظرت طويلا .. ؟

وفتحت الشقة ثم دخلت جاذبة اياه من ذراعه . وأضاءت مصباحا فظهر مدخل مستطيل صغير خال من أى شىء . ومالت به الى حجرة جانبية كشف مصباحها الكهربائى عن حجمها المتوسط وأضلعها المربعة ، ثم سارعت الى النافذة ففتحتها على مصراعيها لتلطف من جوها المختنق . وارتمى على احدى الكنبتين المتقابلتين وهو يقول متشكيا :

ـــ جئت عند منتصف الليـــل ، ولبثت أنتظر حتى شاب شعرى ..

فجلست على الكنبة الأخرى بعد أن أزاحت عنها أقمشة مفصلة وكوماً من القصاصات وقالت :

ـــ الحق أنه لم يكن عندى أدنى أمل فى أنك ستجىء ..

وتلاقت الأعين المتعبة ، فابتسم ليـــدارى تحجر باطنه ، وتساءل :

ـــ حتى بعد وعدى الصريح ؟ !

فابتسمت ابتسامة خفيفة ولم تجب ، لكنها قالت :

ـــ أمس استجوبونى فى القسم حتى أزهقوا روحى ، أين السيارة ؟

فقال وهو يخلع چاكتته ويرمى بها الى جانبـــه كاشفا عن قميص طحينى متلبد بالعرق والغبار .

ـــ قضت الحكمة بأن أتركها رغم حاجتى اليها ، سيجدونها ويردونها الى صاحبها كما ينبغى لحكومة تنحيز لبعض اللصوص دون البعض !

فسألته فى قلق :

ـــ ماذا فعلت بها أمس ؟

ـــ لا شىء البتـــة فى الحقيقة ، وســـتعلمين كل شىء فى حينه ..

ونظر نحو النافذة وهو يتنفس فى عمق قائلا :

ـــ جهة بحرية فيما أظن ، هواء لطيف حقا ..

ـــ خلاء حتى باب النصر ، هنا القرافة ..

فابتسم قائلا :

ـــ لذلك فهواؤها غير فاسد !

تنظر اليك بنهم ، وأنت تمتعض ضجرا . وبدل العزاء تتذكر طعنة فى الكبرياء . وقالت نور راجعة الى أفكارها الأولى :

ـــ انتظرت طويلا على السلم ، أنا آسفة جدا ..

فامتحنها بنظرة غامضة وهو يقول :

ـــ سأنزل ضيفا عندك لأجل طويل ..

فارتفع رأسها ابتهاجا وهى تقول :

ـــ امكث طول العمر ان شئت ..

فأومأ الى النافذة وهو يقول باسما :

ـــ حتى أنتقل الى الجيران !

وبدا أنها لم تسمعه لتفكير لاح فى عينيها ثم تساءلت :

ـــ وأهلك ألا يسألون عنك ؟

فأجاب وهو ينظر الى حذائه المطاط :

ـــ لا أهل لى ..

ـــ أعنى زوجتك ؟

تعنى الألم والجنون والرصاص الضائع . تريد اعترافا مؤذيا للكرامة . وستجد أن فتح القلب المغلق يزداد عسرا . ولكن ما جدوى الكذب والجرائد تنعق بالفضيحة ؟

ــ قلت لا أهل لى ..

أنت تفكرين فى معنى القول . ويشرق وجهك بالسرور . وأنا أكره هذا السرور . وأرى الآن أن الذبول استقر تحت عينيك . وتساءلت :

ــ الطلاق ؟

لوح فى ضجر قائلا :

ــ طلقت وأنا فى السجن ، ولندع هذا الحديث جانبا .

فقالت بغضب :

ــ خنزيرة ! ، مثلك ينتظر ولو حكم عليه بتأبيدة !

الماكرة . مثلى لا يحب الرثاء . احذرى الرثاء . يا ضيعة الرصاص فى الصدور البريئة !

ــ الحق أنى أهملتها كثيرا !

ــ على أى حال هى امرأة لا تستحقك !

صدقت . ولا أى امرأة . لكنها مفعمة حيوية وأنت تترنحين فوق الهاوية . نفخة واحدة ثم تنطفئين . وما لك فى قلبى سوى الرثاء ، وقال :

ــ لا يجوز أن يشعر بى أحد !

فقالت ضاحكة وكأنها وثقت من امتلاكه الى الأبد :

ــ أحطك فى عينى واكحل عليك !

ثم برجاء :

ــ هل فعلت شيئا خطيرا ؟

هز منكبيه باستهانة ، فقامت وهى تقول :

ــ سأعد لك مائدة ، عندى طعام وشراب ، أتذكر كم كنت جافاً معى فى الماضى ؟

ــ لم يكن عندى وقت للحب ..

فلحظته بعتاب وهى تقول :

ــ وهل يوجــد ما هو أهم منه ؟ .. وكنت أقول لنفسى لعل قلبه حجر ، ومع ذلك فلم يحزن أحـــد على سجنك كما حزنت ..

ــ لذلك لجأت اليك أنت !

فقالت بامتعاض :

ــ أنت لم تقابلنى الا صدفة ، ولعلك كنت نسيتنى تماما ..

فقطب عمدا وهو يتساءل :

ــ أتظنين أنى لا أستطيع أن أجد مكانا آخر ؟

فأشفقت من غضبه ، وأقبلت عليه فأحاطت خديه براحتيها وهى تقول معتذرة :

ــ نسيت أن العسكرى يمنع زوار الحديقــة من معاكسة الأسد ، آسفة ، ولكن ما أسخن وجهك ، وذقنك خشنة جدا ، ما رأيك فى دش بارد ؟ !

فأعرب عن ترحيبه بابتسامة :

ــ الى الحمام ، وعندما تخرج ستجد المائدة معدة ، سنأكل فى حجرة النوم فهى أجمل من هــذه الحجرة وتطل مثلها على القرافة ..

الفصل العاشر

يا للعدد العديد من المقابر . الأرض تمتد بها حتى الأفق . رافعة أيديها فى تسليم وان يكن شىء لا يمكن أن يهددها . مدينة الصمت والحقيقة . ملتقى النجاح والفشل والقاتل والقتيل . مجمع اللصوص والشرطة حيث يرقدون جنبا الى جنب فى سلام لأول ولآخر مرة . وشخير نور يبدو أنه لن ينقطع الا حين تستيقظ عند الأصيل . وستبقى أنت فى هذا السجن حتى ينساك البوليس ، ولكن هل ينساك البوليس حقا ؟ . وبقدر ما يخون الموت الأحياء فستذكر بالقبور الخيانة ثم تذكر بالخيانة نبوية وعليش ورءوف . وأنت نفسك ميت منذ انطلقت الرصاصة العمياء ، ولكن عليك أن تطلق مزيدا من الرصاص .

وسمع تثاؤبا كالتأوه فتراجع عن شيش النافذة ملتفتا نحو الفراش فرأى نور جالسة ، شبه عارية ، منكوشة الشعر تعيسة القسمات . نظرت اليه بارتياح وهى تقول :

— حلمت أنك بعيد وأننى أنتظرك كالمجنونة ...

فقال فى كآبة :

— هذا فى الحلم ، أما فى الحقيقة فأنت التى ستذهبين بعيدا وأنا الذى سأنتظر ..

وذهبت الى الحمام ثم عادت وهى تجفف رأسها ووجهها وتابع يديها وهما تصوران وجهها فى صــورة جديدة ، بهيجة شابة . هى ــ مثله ــ فى الثلاثين ولكنها تكذب علنا لتبــدو أصغر ، وسخافات ورذائل لا حصر لها تمــارس علنا ، ليست السرقة كذلك ويا للأسف . وأوصلها حتى الباب وهو يقول :

ــ لا تنسى الجرائد ..

ومضى الى حجرة الجلوس فاستلقى على كنبة . وحيد بكل معنى الكلمة حتى كتبه منســية عند الشــيخ على الجنيدى ، وتسلى بالنظر الى السقف الأبيض الباهت المعروق وكأنه مرآة تعكس بساط الحجرة المنجرد . ومن خلال النافذة بدت سماء المغــيب كدرة يدور بهــا سرب من الحمــام من آن لآن . وجفولك يا سناء مؤلم حقا كمنظر القبر . ولا أدرى ان كنــا سنلتقى مرة أخرى ، أين ومتى . ولن يخفــق قلبــك بحبى فى هذه الحيــاة المليئة بالرصاصات الطائشة . وكالرصاص تطيش رغائب كثيرة فى الدنيــا مخلفة وراءها ســلسلة من الحلقات المحزنة . ابتــداء من الحلقة الأولى عند بيت الطلبة فى طريق مديرية الجيزة . لم يكن عليش سدرة الا شخصا عابرا لا قيمة له أما نبوية فقد هزت القلب حتى اقتلعته من جذوره . ولو أن الخيانة الكامنة ظهرت فى صفحة الوجه كما تظهر آثار الحميات الخبيثة لما تجلى جمال فى غير موضعه ولأعفيت قلوب كثيرة من عبث المكائد . والبقال يقع دكانه أمام بيت الطلبة وتجىء نبوية

حاملة السلطانية لتشترى ما تشاء فى ثياب مهندمة بل تعد زينة
وسط أمثالها من الخادمات لذلك عرفت بخادمة الست التركية
نسبة الى تركية عجوز كانت تقيم بمفردها فى بيت محاط بحديقة
كبيرة فى آخر الطريق وكانت غنية ومتكبرة وتفرض على كل
من يمت اليها بسبب أن يكون جميلا وأنيقا ونظيفا فتبدت نبوية
دائما ممشطة الشعر منسابة الضفيرة حتى العجز منتعلة شبشبا
يطوق جلبابها حيوية جسد ثائر وحتى الأعين غير المسحورة أى
أعين الآخرين وصفت جمالها بأنه جمـال فلاحى لذيذ الطعم
باستدارة الوجه الخمرى والعينين العسليتين والأنف القصـير
الممتلىء والفم المشرب بماء الحيـاة والدقة الخضراء فى الذقن
كالخال وكان يقف عند باب بيت الطلبة عند الانتهاء من الخدمة
ينظر نحو آخر الطريق الذى تجىء منه حتى تلوح لعينيه القامة
البديعة والمشية الحبيبة وتقترب وتقترب باعثة باقترابها أجمل
مشاعر الحياة كأنها موسـيقى عذبة تستقبل بها حيث حلت
وتتبعها عيناك فى نشوة الخمر وتندس معها بين عشرات الواقفات
أمام البقال وتغيب حينا وتظهر حينا وأنت تزداد غراما وسؤالا
ورغبة فى عمل شىء أى شىء ولو كلمة أو اشارة أو تعويذة وتمضى
هى أخيرا فى طريق العودة منذرة بالاختفاء بقية نهار وليلة كاملة
فتصـعد منك تنهيـدة مريرة وتبوخ النشوة رويدا وتخرس
العصافير فوق أشجار الطريق وينتشر جو الخريف فجأة ثم مرة
تلحظ أن عودها يميس تحت نظراتك وأنها تتيه دلالا فلا تقف

أنت عند حد وباندفاعك الطبيعى تسبقها فى الطريق ثم تعترض
سبيلها عند النخلة الوحيدة القائمة فى نهاية الحقول بجرأة غريبة
تعترض سـبيلها حتى ذهلت أو تظاهرت بالذهول وسـألتك
محتجة من أنت فأجبت بدهشة من أنا ألت تسألين من أنا ألا
تعرفين من أنا أنا صاحب العين التى يعرفها كل شبر فى كائنك
فقالت بحدة أنا لا أحب قلة الأدب فقلت ولا أنا أنا مثلك لا
أحب قلة الأدب وعلى العكس أحب الأدب والجمال والرقة وكل
أولئك هو أنت أنت ألا تعرفين الآن من أنا ولا بد أن أحمـل
عنك هذه السلة وأوصـلك حتى باب البيت فقالت لست فى
حاجة الى مسـاعدتك ولا تقف فى طريقى مرة أخرى وسارت
فسرت الى جانبها متشجعا بابتسامة خفية ضاعت فى الاكفهرار
المصطنع أحسست بها كما تحس بأول نسمة رقيقة متسللة فى
ليلة زامتة فقالت ارجع يجب أن ترجع ستى تجلس فى النافذة
وستراك اذا تقدمت أكثر من هذا خطوة واحدة قلت أنا عنيد
واذا أردت أن أرجع فلنرجع معا بضع خطوات ليس الا عند
نخلتنا الوحيدة اذ لا بد أن أتكلم ولماذا لا أتكلم هل أنا لا أملأ
العين وهزت رأسها فى عنف ولكنها أبطأت السير وغمغمت فى
احتجاج وغضب ولكنها أبطأت فى السير وتقوس عنقها كالقطة
المتنمرة ولكنها أبطأت فى السير فلم أعد أشك فى أنى وصلت
وأن نبوية لاتخلو من بعض مشاعرى وأنها مطلعة تماما على تاريخ
وقفاتى التنهدية عند بيت الطلبة وأن نظرات الطريق ستتحول



الى أمور لها خطرها فى حياتى وحياتها وحياة الدنيا جميعا التى ستزداد بها عدا فقلت الى غد وتوقفت خشية عليها من لذع لسان تركى عجوز يقيم فى شارع مديريتنا كاللغز ثم تراجعت الى النخلة ومن فرحتى تسلقتها بسرعة قرد وقفزت من علو ثلاثة أمتار الى أرض مزروعة جرجــيرا ثم رجعت الى بيت الطلبة وأنا أغنى بصوتى الغليظ كأنى ثور هزه الطرب وعندما دفعتك ظروف قهرية الى العمل فى سرك الزيات مضت بك الحياة من حى الى حى ومن بلدة الى بلدة وخفت أن يصــدق عليك المثل القائل ان البعيد عن العين بعيد عن القلب فقلت لها لنتزوج لنتزوج على سنة الله ورسوله وأنتما تقفان عند مشارف الجامعة التى لم تدخلها ظلما ودخلها كثير من الأغبياء ولم يكن فى الطريق ضوء ولا فى السماء الا هلال غليظ استقر فوق الأفق وابتهجت ونظرت الى الأرض حتى لمع جبينها الضيق تحت شعاع الهلال فقلت ان عملى مربح ومستقبلى هائل ومسكنى فى الدراســة دور أرضى نظيف بطريق الجبل على مقربة من مسكن الشيخ على الجنيدى وستعرفين الشيخ المبارك عندما تتزوج ويجب أن تتزوج فى أقرب وقت اكراما لحبنــا طويل العمر وآن لك أن تتركى ستك العجوز فقالت أنا يتيمة وليس لى الا عمة بسيدى الأربعين فقلت على بركة الله وقبلتها أمام الهــلال والفرح من جماله عاش أحــدوثة على كل لســان والزيات تقطنى بعشرة جنيهات وعليش ســدرة من سروره بدا كأنه صــاحب الفرح

ولعب دور الصديق الأمين ولكن لم يكن صديقا على الاطلاق
وأعجب شيء أني خدعت به وأنا الذكي الذي يخافه الجن
الأحمر كنت البطل وكان عابد البطل يحبني ويتملقني ويتجنب
غضبي ويلتقط فتات العيش من كدي وشطارتي وآمنت بأنني
لو أرسلته مع نبوية الى الصحراء التي تاه فيها سيدنا موسى
لظل يراني قائما بينه وبين نبوية فلا يحيد عن الأدب وهي كيف
تميل الى الكلب وتعرض عن الأسد ولكن القذارة مركبة في
طبعها قذارة تستحق القتل في الدنيا وفي الآخرة وعلى شرط ألا
يطيش الرصاص الأعمى فيصيب الأبرياء ويعمى عن الأوغاد
والسفلة ويترك قلوبا يمزقها الألم ويحرقها الغضب ويعبث بها
الجنون فتنسى كل شيء طيب في الحياة حتى ليلة الدخلة ولعب
الصبيان في الحارة والحب قبل الفساد ومولد سناء ورؤية وجه
سناء لأول مرة وسماع بكائها لأول مرة وحملها على الساعدين
لأول مرة وابتسامتها التي لم أحصها وليتني أحصيتها أو صورتها
وليتني أنسى فيما نسيت جفولها وصراخها الذي رددته أركان
الأرض وجفت بسببه الينابيع والنسائم وكافة المشاعر الطيبة في
الوجود . وانتشر الظلام نعم انتشر الظلام في الحجرة وخارج
النافذة وزاد صمت القبور صمتا ولا يمكن أن تضيء المصباح كي
تبقى الشقة كما تبقى عادة في أثناء غياب نور وستألف عيناك
الظلام كما ألفت السجن وكما ألفت الوجوه الكريهة ولن تجد
فرصة للسكر خشية أن تحدث حركة عنيفة أو ترفع صوتا منكرا

اذ يجب أن تبقى الشقة صامتة كالقبر وحتى الأموات أنفسهم
لن يفطنوا لوجودك هنا والله وحده يعلم كيف تصبر على هذا
السجن والى متى كما كان يعلم وحـــده أنك ستقتل شعبان
حسين لا عليش سدرة ولا بد أن تخرج عاجلا أو آجلا للتجول
فى الليل ولو فى الأماكن الآمنة ولكن فلنؤجل ذلك الى حين
حتى يتقتل البوليس تعبا فى البحث عن لا شيء ولنسأل الله ألا
يدفن شعبان حسين فى قبر من هذه القبور فان هـــذه المنطقة
القديمة لا تتحمل ثقل المفارقات القاسية واصبر اصبر حتى تعود
نور ولا تسأل متى تعود نور وعليك أن تكابد الظلمة والصمت
والوحدة ما دامت الدنيا لا تريد أن تغير من عاداتها الســيئة
ونور المسكينة كذلك فحبها القديم لك ما هو الا عادة سيئة
وهو يرتطم بقلب قتله الألم والغضب وينفر من اقبالها كما ينفر
من ذبولها ولا يدرى حقا ماذا هو فاعل بها الا أن يشاربها نخب
الضياع والأسى ويرثى لمحاولاتها الطيبة اليائسة ولن ينسى فى
النهاية انها امرأة كما أن نبوية امـــرأة الخائنة الجبانة سيقتلها
الخوف على حياتها حتى يلتف الحبل حول عنقك أو تستقر فى
قلبك رصاصة مجرمة ويشوه البوليس سيرتك فينقطع ما بينك
وبين سناء الى الأبد حتى حبك لن تدرى عن صدقه شيئا كأنه
رصاصة طائشة وكذلك ..

واختلس النوم سعيد مهران وحلم بعض الوقت ولم يدرك
أنه كان يحلم الا عند يقظته ، عند وعيـــه لوجوده فى الظلام

والوحدة بشقة نور بشارع نجم الدين وتأكده من أن عليش سدرة لم يفاجئه فى مخبئه ولم يطلق عليه الرصاص تباعا . ولم يدر عن الوقت شيئا سرعان ما سمع همس المفتـــاح فى القفل وصفقة الباب وهو يغلق وشراعة باب الحجرة وهى تنضح بضوء المدخل . وظهرت نور باسمة حاملة لفة كبيرة فأقبلت عليه تقبله وهى تقول :

ــ وليمة ! ، معى العجاتى وتسباس ومانولى !

فقبلها متسائلا :

ــ شاربة ؟

ــ لزوم العمل ، سأستحم ثم أرجع ، واليك الجرائد ..

وتابعها بعينيه حتى ذهبت ثم انهمك فى مراجعـــة الجرائد الصباحية والمسائية على السواء . لم يكن فيها جديد بالنسبة اليه ولكن ثمة اهتمـــام بالجريمة والمجـــرم فاق ما كان يتوقعه وبخاصة ما نشر فى جريدة الزهرة ، جـــريدة رءوف علوان . كتبت الجريدة فى اسهاب مثير عن تاريخه فى اللصـــوصية ، وسلسلة المغامرات التى كشفت عنها محاكمته ، وقصور الأغنياء التى سطا عليهـــا ، وعن شخصيته ، وجنونه الخفى ، وجرأته الاجرامية التى انتهت الى سفك الدماء . يا للعناوين الكبيرة الســـوداء . آلاف وآلاف يناقشون الساعة جرائمه ويتندرون بخيانة نبوية له ويتراهنون على مصـــيره . انه محور الأخبار ورجل الساعة وقلبه ينقبض لذلك خوفا وزهوا . الانفعال يكاد

يمزق عروقه وعشرات الأفكار تتزاحم فى رأسه فى اللحظة الواحدة وتيار مثل تيار الخمر يغمر خياله فيؤمن بأنه سيتمخض عن أمر خطير لا يقل شأنا عن الخلق أو النصر ، فيود لو يتصل بالناس ليعرب لهم عما يهز صدره فى الصمت والوحدة ، وليؤكد لهم بأنه سينتصر ولو بعد الموت . انه وحيد حيال الجميع ولكنهم لا يعلمون ، لم يفقهوا بعد حديث الصمت والوحدة ، ولا يفطنون الى أنهم أيضا لهم حديث صمت ووحدة ، والمرآة التى تعكس صورهم باهتة مضللة فيتوهمون أنهم يرون قوما غرباء . وثبتت عيناه على صورة سناء فى دهشة وتأثر . وجرى بصره على الصور جميعا ، صورته الوحشية وصورة نبوية التى بدت كامرأة ساقطة ، ثم عاد الى سناء المبتسمة . أجل انها تبتسم ، لأنها لا تراه ولأنها لا تدرى شيئا . وتفحصها بكل قوة ورغبة فدهمه شعور بأنه عبث وأن الليل خارج النافذة يتنفس حزنا أصيلا . وتمنى فى يأسه لو يستطيع الهرب بها الى مكان لا يعرفه أحد . وأن يراها ولو كآخر طلب له فى الدنيا قبل الشنق .. وقام الى الكنبة الأخرى ليلتقط المقص من بين قصاصات القماش المكومة ثم عاد ليقتطع الصورة بعناية من الجريدة . ولما خرجت نور من الحمام كانت نفسه قد هدأت نوعا ما وناداته من حجرة النوم فمضى اليها وهو يعجب كيف أنها حملت اليه جميع الأنباء وهى لا تدرى عنها شيئا . وتجلى كرمها فى المائدة التى أعدتها فسال لعابه شوقا الى الطعام

والشراب . وجلس الى جانبها على كنبة مواجهة للفراش أمام الخوان الحافل ، ولرضاه ربت شـعرها المبتل وهو يقول على سبيل التحية :

ـ أنت امرأة ولا كل النساء ..

وعصبت شعرها بمنديل أحمر ، وراحت تمـلأ الأكواب ، مبتسمة طوال الوقت لقوله ، مبدية عن لونها الأسمر الباهت بلا زواق ، منتعشة بالحمام كطعام متواضع لكنه طازج ، مطمئنة فى جلستها معتزة بامتلاكه ولو الى حين ، فارتاح الى ذلك كله دون حماس . وحدجته بنظرة ارتياب وقالت :

ـ أنت تقول هذا ! ، أكاد أصدق أحيانا أن الرحمة قد تعرف قلوب رجال البوليس قبل أن تعرف قلبك ..

ـ صدقينى أنا سعيد بك ..

ـ حقا ؟

ـ نعم ، رقة قلبك لا يمكن أن تقاوم .

ـ ألم أكن كذلك فى الزمان الأول ؟

هيهات أن ينسينا انتصار سهل هزيمة دامية . وقال :

ـ كنت وقتذاك بلا قلب ..

ـ والآن ؟

فتناول كوبه قائلا :

ـ لنشرب ولنبتهج ..

وأقبلا على الطعام والشراب بشهوة صادقة ، حتى سألته :

ـــ كيف قضيت وقتك ؟

فأجاب وهو يغمس ريشة فى الطحينة :

ـــ بين الظلمة والقبور ، أليس لك أموات هنا ؟

ـــ أمواتى فى قبور البلينا ، رحمة الله على الجميع ..

وصمتنا فوضحت أصـــوات التمطـــق واحتكاك الأكواب وطقطقة الصينية . وعاد سعيد يقول :

ـــ سأطلب منك أن تشترى لى قماشا يصلح لبدلة ضابط ..

ـــ ضابط ؟

ـــ ألا تدرين أننى تعلمت الخياطة فى السجن ؟

فتساءلت بنظرة قلقة :

ـــ ولكن لمه ؟

ـــ جاء دورى فى الجهادية !

ـــ ألا تفهم أنى لا أريد أن أفقدك مرة أخرى ؟

فقال بثقة غريبة :

ـــ لا تخافى علىّ لولا الغدر ما تمكن البوليس منى أبدا .

تنهدت فى امتعاض فراح يقول من فم مكتظ :

ـــ أنت نفسك ألست عرضة للخطر ؟

ثم وهو يبتسم :

ـــ كأن يهاجمك قاطع طريق فى الصحراء مثلا ؟

وضحكا معا ، ثم مالت نحـــوه فقبلت شـــفتيه اللزجتين بشفتين لزجتين وقالت :

ـــ الحق أننا لكى نعيش يجب ألا نخاف شيئا ..

فتساءل وهو يومىء الى النافذة بذقنه :

ـــ حتى الموت ؟

ـــ أعوذ بالله ..

ثم باستهانة :

ـــ وحتى هذا أنساه عندما يجمعنى الزمان بمن أحب ..

أعجب بحرارة قلبها وقوة اصراره ، ولفتوره شعر نحوها بالرثاء والاحترام والامتنان .

وكانت ثمة فراشـــة تعانق المصباح العارى فى تلك الساعة من الليـــل ..

الفصل الحادى عشر



لا يمر يوم دون أن تستقبل القرافة ضيوفا جددا . وكأن لم يبق لك من غاية الا أن تقبع وراء الشيش لترى الموت فى نشاطه الدائب . والمشيعون أحق بالرثاء ، يذهبون فى جموع باكية ، ثم يعودون وهم يجففون الدموع ويتحادثون . وقوة أقوى من الموت نفسه هى التى تقنعهم بالبقاء . هكذا دفن الذاهبون من

أهلك . عم مهران الكهل الطيب بواب عمارة الطلبة . العمل والقناعة والأمانة . وقد اشتركت معه فى الخدمة منذ الطفولة . ورغم البساطة والفقر كانت الأسرة تفوز فى ختام يومها بجلسة هنية فى الحجرة الأرضيــية بحوش العمارة ، الرجــل وامرأته يتحــادثان والطفل يلعب . ولايمانه بالله اعتنق الرضى ، وكان الطلبة يحترمونه . ونزهته الوحيــدة كانت فى الحج الى بيت الشيخ على الجنيدى ، وعن طريقه عرفت أنت بيت الشيخ . يا سعيد تعال معى ، سأدلك على رياضة هى خير من اللعب فى الحقل ، ستذوق لذة العيش فى جو البركة ، بهذا يطمئن قلبك وطمأنينة القلب هى خير زاد فى الدنيا . وتلقاك الشيخ بنظرة عامرة بالحنان فأعجبت أيما اعجاب بلحيته البيضاء ، وقال يخاطب أباك « هذا ابنك الذى حدثتنى عنه ، النجابة فى عينيه ، قلبه أبيض كقلبك ، وستجده ان شاء الله من الطيبين » . والحق أنك أحببت الشيخ على الجنيدى جدا . فتنتك وضاءة وجهه واشعاع المحبة المنبثق من عينيه . كذلك أعجبتك الأنغام والأناشــيد فلعبت بأوتار قلبك حتى قبل أن يهــذبه الحب . وقال له عم مهران يوما « علم هذا الغلام ماذا يجب عليه أن يفعل » فأجاب الشيخ وهو يحنو عليك بنظرة « نحن نتعلم من المهــد الى اللحد ، ولكن يا سعيد ابدأ بأن تحاسب نفسك ، وليكن فى كل فعل يصــدر عنك خير لانسان » ! واتبعت قوله على قــدر استطاعتك ولكنك لم تحققه على أكمل وجه الا حين احترفت

اللصوصية ! . وتتابعت أيام كالأحلام ثم اختفى عم مهران الطيب . اختفى الرجل على نحو لم يفهمه الغلام ، وبدا الشيخ على الجنيدى نفسه عاجزا أمام اللغز . « يا بؤسك .. يا بؤسنا . مات أبوك » هكذا صاحت أمك وهى تصوت وأنت تهز رأسك وتدعك عينيك لتفيق من النوم بعد أن أيقظك صراخها فى الحجرة الأرضية بعمارة الطلبة . وبكيت فزعا لأنه لم يكن فى وسعك أن تفعل شيئا . ولكن تجلت فى تلك الليلة شهامة رءوف علوان الطالب بكلية الحقوق . كان شهما فى جميع الأحوال ، وكنت تحبه كما تحب الشيخ على الجنيدى وأكثر ، وهو الذى سعى فيما بعد الى أن تحل مكان أبيك فى خدمة العمارة ، أو أن تحل أنت وأمك فى مكان أبيك وهو الأصدق ، فنهضت بالمسئولية فى سن مبكرة . ثم اختفت أمى . وكدت تهلك بسبب مرضها كما لا بد أن يذكر رءوف علوان . ويوم النزيف الذى لا ينسى ، يوم طرت بها الى أقرب مستشفى . مستشفى صابر التى تقوم كالقلعة وسط حديقة غناء . وجدت نفسك أنت وأمك فى قاعة استقبال عند المدخل فخيمة بدرجة لم تجر لك فى خيال ، وبدا المكان كله وكأنما يأمرك بالابتعاد ولكنك كنت فى مسيس الحاجة الى اسعاف ، اسعاف سريع . ودلوه على الطبيب الشهير وهو خارج من غرفة فجرى اليه بجلبابه وصندله صائحا « أمى .. الدم .. » فتفحصه الرجل بعينين زجاجيتين مستنكرا ومد بصره الى حيث استلقت الأم على مقعد وثير بشحوب

كالسخام . وثمة ممرضة أجنبية كانت تراقب ما يجرى عن كثب فبازاء ذلك اكتفى بالاختفاء صامتا . ورطنت الممرضة بلغة لم يفهمها ولكنه شعر بأنها تشاركه بعض مأساته . وغضب غضبة رجل رغم حداثة سنه . صاح محتجا لاعنا . ورمى بمقعد الى الأرض فأحدث دويا وتطايرت قشرة مسنده . وجاء خدم كثيرون ، وما لبث أن وجد نفسه وأمه وحيدين فى الطريق المسقوف بالأغصان . وعقب شهر من الحادث ماتت الأم فى قصر العينى . وطيلة احتضارها ظلت قابضة على يدك وتأبى أن تحول عنك عينيها . غير أنك فى غضون شهر المرض سرقت ، لأول مرة ، سرقت طالبا ريفيا من نزلاء عمارة الطلبة ، واتهمك الطالب دون تحقيق وانهال عليك ضربا حتى جاء رءوف علوان فخلصك من قبضته ، وسوى المسألة بلا مضاعفات . كنت انسانا حقا يا رءوف وفضلا عن ذلك كنت أستاذى أيضا . وحين خلا اليك قال لك بهدوء : « لا تخف ، الحق انى أعتبر هذه السرقة عملا مشروعا ! » . ولكنه استدرك محذرا : « ولكنك ستجد البوليس لك بالمرصاد » . وقال لك أيضا ساخرا : « ولن يتسامح القاضى معك مهما تكن بواعثك مقنعة فهو أيضا يدافع عن نفسه » . ثم تساءل بالسخرية نفسها : « أليس عدلا أن ما يؤخذ بالسرقة فبالسرقة يجب أن يسترد ؟ » . ثم هتف غاضبا « انى أتعلم بعيدا عن أهلى وأكابد كل يوم عذابا وجوعا وحرمانا » . أين ذهبت تلك الحكم يا رءوف ؟ .. لعلها ماتت

كأبى وأمى وأمانة زوجتى . ولم يكن بد من أن تهجر عمارة الطلبة سعيا وراء الرزق فى مكان آخر . وانتظرت عند النخلة الوحيدة فى نهاية الحقل حتى قدمت نبوية فوثبت نحوها وقلت لها : لا تخافى ، يجب أن أكلمك ، أنا ذاهب ، سأجد عملا أوفر ربحا ، وأنا أحبك ، لا تنسينى أبدا ، أنا أحبك وسأحبك دائما وسوف أثبت لك أنى قادر على اسعادك وعلى فتح بيت محترم لك . وفى تلك الأيام كانت الأحزان تنسى والجروح تلتئم والأمل يحصد الصعاب ، فيا أيتها القبور الغارقة فى الظلمة لا تسخرى من ذكرياتى ! .

ونهض من استلقائه فجلس على الكنبة فى الظلام وخاطب رءوف علوان كأنه يراه أمامه قائلا فى سخرية :

ـ لو قبلت أن أعمل محررا فى جريدتك يا وغد لنشرت فيها ذكرياتنا المشتركة ولخسفت نورك الكاذب ..

ثم تساءل بصوت مسموع :

ـ الام أطيق أن أبقى فى الظلام حتى تعود نور قبيل الفجر ؟

واستولت عليه بغتة رغبة لا تقاوم فى أن يغادر البيت للقيام بجولة فى الليل . وانهارت مقاومته كما ينهار بناء آيل للسقوط فى ثوان . وفى دقائق كان يغادر البيت فى حذر ، فاتجه نحو طريق المصانع ، ومنه مال نحو الخلاء . وازداد بمغادرة المخبأ وعيا باحساس المطارد . فشارك الفئران والثعابين مشاعرها

حين تتسلل . وحيد فى الظلمة ، تتربص به المدينة التى تلوح أضواؤها فى الأفق ، ويتجرع وحدته حتى الثمالة ، وجلس الى جانب طرزان على أريكته ولم يكن بداخل القهــوة الا رجل واحد من مهربى السلاح وصبى القهوة على حين ضج سفح الهضبة بالسمر . وسرعان ما جاءه صبى القهوة بالشاى ، ثم مال طرزان نحوه هامسا :

ــ لا تقم فى مكان واحد أكثر من ليلة ..

وقال المهرب :

ــ اهرب الى الصعيد ..

فتساءل سعيد :

ــ لا أحد لى فى الصعيد ..

فعاد المهرب يقول :

ــ كثيرون تحدثوا عنك أمامى باعجاب ..

فتساءل طرزان بحنق :

ــ والبوليس هل يعجب به أيضا ؟

فضحك المهــرب حتى اهتز جسمه هزة غريبة كأنه يمتطى جملا مسرعا ، ثم قال :

ــ البوليس لا يعجبه العجب !

فتمتم سعيد :

ــ ولا الصيام فى رجب ..

فقال صبى القهوة بحماس :

ــ أى ضرر فى سرقة الأغنياء ؟

فابتسم سعيد فى ارتياح كأنه يتلقى تحية فى حفل تكريم ثم قال :

ــ الجرائد لسانها أطول من حبل المشنقة ، وماذا ينفعك حب الناس اذا أبغضك البوليس ؟

ونهض طرزان فجأة فاندفع نحو النافذة وأطل منها ملتفتا يمنة ويسرة ، ثم عاد وهو يقول باهتمام :

ــ خيل الى أنى رأيت وجها ينظر الينا !

فالتمعت عينا سعيد ، وردد ناظريه بين النافذة والباب ، وخرج الصبى مستطلعا ، على حين قال المهرب :

ــ أنت ترى دائما أشياء لا وجود لها .

فهتف به طرزان :

ــ اسكت ، أنت تظن أن حبل المشنقة لهو ولعب !

وغادر سعيد القهوة بيد قابضة على المسدس فى جيبه . ومضى فى الخلاء وهو يتلفت ويتنصت فى حذر وتصميم . وتضاعف احساسه بالمطاردة والوحدة والقلق ، وأدرك أنه لا يمكن أن يستهين بكتلة الأعداء المفعمة شهوة وخوفا والتى لن يرتاح لها بال حتى تراه جثة هامدة . وعندما اقترب من البيت بشارع نجم الدين رأى النور فى نافذة نور فداخله أول شعور بالراحة منذ غادر القهوة . ووجدها راقدة فهم بمداعبتها

ولكنه تبين فى وجهها اعياء صارخا ، واحمرارا فى العينين لا يكون الا لعلة . وجلس عند قدميها وهو يسأل :

ــ مالك يا نور ؟

فقالت بصوت ضعيف جدا :

ــ ميتة ! ، تقايأت حتى مت ..

ــ الخمر ؟ !

اغرورقت عيناها وهى تقول :

ــ طول عمرى وأنا أشرب !

وكان يرى دمعها لأول مرة فتأثر وهو يسأل :

ــ اذن ما السبب ؟

ــ ضربونى !

ــ البوليس ؟

ــ شبان لعلهم طلبة وأنا أطالبهم بالحساب ...

انحرف جانب فيه فى رثاء وتمتم :

ــ اغسلى وجهك واشربى قليلا من الماء ..

ــ فيما بعد ، أنا تعبانة جدا ..

فتمتم غاضبا :

ــ الكلاب !

وربت ساقها اعرابا عن رثائه فقالت وهى تشير الى لفة على الكنبة الأخرى :

ــ قماش البدلة !

فرفت يده حنانا وامتنانا ، وعادت هى تقول كالمعتذرة :

ــ لن أروق فى عينيك هذه الليلة ..

ــ لا عليك ، اغسلى وجهك ثم نامى ..

وفصل بينهما الصمت ، ونبح فى مشــارف القرافة كلب ، وندت عن نور تنهدة كالبخار ، ثم ارتفع صوتها وهى تقول فى حزن بالغ :

ــ قالت أمامك مستقبل كالورد ..

فتساءل متعجبا :

ــ من ؟

ــ ضاربة الودع ، وقالت سيجىء الأمان والاطمئنان ..

فنظر الى سواد الليل المتراكم خارج النافذة ، واستطردت هى تقول :

ــ متى يجىء ؟ .. الانتظار طال ولا فائدة ، ولى صديقة أكبر منى بأعوام تقول وتعيد القول اننا نصير عظاما أو أسوأ من ذلك فحتى الكلاب تعافنا ..

وخيل اليه أن الصوت المتكلم نافذ من قبر فامتلأ شجنا ولم يجد ما يقوله . وقالت هى :

ــ ضاربة الودع متى تصدقين ؟ ، أين الأمان ؟ ، أريد نومة مطمئنة وصحوة هنية وجلسة وديعة ، هل يتعذر ذلك على رافع السماوات السبع ؟!

كذلك أنت حلمت بهــذه الحيــاة ورغم ذلك مرت حياتك

وكلها تسلق مواسـير وقفز من الأسطح ومطاردة فى الظلام ورصاصات طائشة تقتل الأبرياء . وقال لها واجما ..

ــ أنت فى حاجة الى النوم ..

ــ أنا فى حاجة الى الوعد ، وعد ضاربة الودع ، وسوف يأتى ذلك اليوم ..

ــ حسن .

فقالت بحدة :

ــ أنت تلاطفنى كأننى طفل ..

ــ أبدا ..

ــ سوف يأتى حقا ذلك اليوم ..

الفصل الثانى عشر

ارتدى بدلة الضابط على سبيل التجربة فحدجته نور بدهشة ولكنها لم تلبث أن قالت فى توسل :

ــ كن حكيما ، لم يعد فى وسعى أن أفقدك ..

فأشار الى البدلة وهو يقول :

ــ عن حكمة صنعتها ..

وتفحص صورته فى المرآة بعناية ثم قال ساخرا :

ــ أظن من المناسب أن أقنع برتبة صاغ ..



ولكنها سمعت عن أسطورته فى الليلة التالية مباشرة ورأت عديدا من صوره فى مجلة أسبوعية مع صاحب من صحابها العابرين . وانهارت أمامه فى يأس قائلة :

ــ قتلت ! ، يا مصيبتى ! ، ألم أتوسل اليك ؟

فلاطفها بيده قائلا :

ــ حدث ذلك قبل أن نلتقى ..

فزاغ بصرها ، وقالت فى شك ويأس :

ــ أنت لا تحبنى ، أنا أعرف هذا ، ولكن كان من الممكن أن نعيش معا حتى تحبنى !

ـ هذه الفرصة موجودة ..

فقالت فى يأس أرهب :

ـ لكنك قتلت ، ما الفائدة ؟

فابتسم فى اطمئنان وثقة وقال :

ـ ما أسهل أن نهرب معا ..

ـ ماذا تنتظر ؟

ـ حتى تهدأ الزوبعة ..

فضربت الأرض بقدمها قائلة :

ـ سمعت أن الجنود يملأون مخارج القاهرة ، كأنك أول قاتل .. !

الجرائد .. الحرب الخفية ! .. ولكنه قال فى هدوء مصطنع :

ـ سأهرب حين أقرر الهرب وسترين ..

وقبض على ضفيرتها كالغاضب وقال موبخا :

ـ ألا تعرفين من يكون سعيد مهران ! ، الجرائد كلها تتحدث عنه وأنت لا تؤمنين به ، أصغى الىّ ، سنعيش معا الى الأبد ، وستصدق كلمة ضاربة الودَع !

ومضى فى الليلة التالية الى قهوة طرزان ، هربا من الوحدة وطلبا للجديد من الأنباء . وما كاد يظهر عند مدخل القهوة حتى بادره طرزان فذهب به الى الخلاء بعيدا ثم قال معتذرا :

ـ لا تؤاخذنى ، حتى قهوتى لم تعد بالمكان المأمون لك ..

فقال سعيد واجما وان أخفى الظلام وجومه :

ـــ ظننت الزوبعة قد هدأت ..

ـــ انها تزداد كل يوم اشتعالا بسبب الجرائد ، اختف ، ولكن لا تحاول الخروج من القاهرة الآن ..

فتساءل سعيد فى حنق :

ـــ ألا تجد الجرائد موضوعا غير سعيد مهران ؟

ـــ انها تقص على الناس أنباء غزواتك الماضية حتى أثارت عليك المحافظة ..

وهمّ بالذهاب فقال له طرزان وهو يودعه :

ـــ فلنتقابل بعيدا عن القهوة اذا شئت ..

وعاد الى مخبئه فى بيت نور . الى الوحدة والظلمة والانتظار . وهتف بغضب :

ـــ أنت يا رءوف وراء كل ذلك ..

جميع الجرائد سكتت أو كادت الا جريدة الزهرة . مازالت تنبش عن الماضى وتستفز البوليس . انها توشك أن تنادى ببطولته سعيا وراء القضاء عليه . ولن يهدأ رءوف علوان حتى يطوق عنقه بحبل المشنقة ، ومعه القانون والحديد والنار . وأنت هل لحياتك التالفة من معنى الا أن تقضى على أعدائك . عليش سدرة مجهول المكان ورءوف علوان فى قصر من حديد ولكن ما معنى حياتك ان لم تؤدب أعداءك ؟ . ولن تحول قوة دون تأديب الكلاب . أجل لن تحول دون ذلك قوة . وبصوت مسموع تساءل :

ــ رءوف علوان ، خبرنى كيف يغير الدهر الناس على هذا النحو البشع ؟ !

ــ الطالب الثائر . الثورة فى شكل طالب . وصوتك القوى يترامى الىّ عند قدمى أبى فى حوش العمارة قوة توقظ النفس عن طريق الأذن . عن الأمراء والباشوات تتكلم . وبقوة السحر استحال السادة لصوصا . وصورتك لا تنسى وأنت تمشى وسط أقرانك فى طريق المديرية بالجلابيب الفضفاضة وتمصون القصب . وصوتك يرتفع حتى يغطى الحقل وتسجد له النخلة تلك هى الروعة التى لم أجد لها نظيرا ولا عند الشيخ الجنيدى . هكذا كنت يا رءوف . وبفضلك وحدك ألحقنى أبى بالمدرسة وعند احراز النجاح ضحكت ضحكة عظيمة ولوالدى قلت : « أرأيت ؟ .. لم تكن تريد أن تعلمه ، انظر الى عينيه ، سيكون ممن يقوضون الأركان » . وعلمتنى حب الكتاب وناقشتنى كأنى ندّ لك . وكنت بين المستمعين لك عند النخلة التى نبتت عند جذورها قصة حبى وكان الزمان ممن يستمعون لك الشعب .. السرقة .. النار المقدسة .. الثروة .. الجوع .. العدالة المذهلة . ويوم اعتقلت ارتفعت فى نظرى الى السماء . وارتفعت أكثر يوم حميتنى عند أول سرقة . ويوم رد حديثك عن السرقة الىّ كرامتى . ويوم قلت لى فى حزن : « سرقات فردية لا قيمة لها ، لا بد من تنظيم ! » . ولم أكف عن القراءة والسرقة بعد ذلك . وكنت ترشدنى الى الأسماء الجديرة بالسرقة . ووجدن

فى السرقة مجدى وكرامتى . وأغدقت على أناس كان من بينهم للأسف عليش سدرة . وبصوت غاضب قال فى الحجرة المظلمة :

ــ أأنت حقا رءوف علوان صاحب القصر ! ، أنت الثعبان الكامن وراء حملة الصحف ؟ ! تود أن تقتلنى كما كان الآخرون . وكما تود أن تقتل ضميرك . وكما تود أن تقتل الماضى . لكنى لن أموت قبل أن أقتلك . أنت الخائن الأول . ما أعبث الحياة ان قتلت غدا جزاء قتل رجل لم أعرفه . فلكى يكون للحياة معنى وللموت معنى يجب أن أقتلك . لتكن آخر غضبة أطلقها على شر هذا العالم . وكل راقد فى القرافة تحت النافذة يؤيدنى . ولأترك تفسير اللغز للشيخ على الجنيدى ..

وعند أذان الفجر سمع البــاب وهو يفتح . وجاءت نور حاملة الشواء والشراب والجرائد ، وبدت مبسوطة شوية كأنما نسيت أشجان الأمس وأحزان أمس الأول . وبحضورها انقشع الظلام فوثب قلبــه المنهك ليعــانق الدنيــا بطعامها وشرابها وأخبارها . وقبلته فقبلها بامتنان ، وبلا تكلف لأول مرة . ود ألا تغيب عنه ، وهى القلب الذى يودعه الحب قبــل الموت . وفض سداد الزجاجة فى مجلسهما المعتاد فملأ كوبا ثم صبها فى جوفه نارا . وسألته وهى ترنو الى وجهه المتعب :

ــ لم لم تنم ؟

وكان يتصفح الجرائد فلم يجب فمضت تقول باشفاق :

ــ الانتظار فى الظلام عذاب .

فسألها وهو يرمى بالجرائد جانبا :
ــ كيف الحال فى الخارج ؟
ــ كحاله فى كل يوم ..
ونضت عنها ثيابها الا قميصا شفافا فسطعت أنفه رائحة بودرة ملبدة بالعرق ، ثم استنطردت :
ــ ويتحــدث عنك ناس كأنك عنترة ولكنهم لا يدرون عذابنــا ..
فقال ببساطة :
ــ أكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم ..
وتواصلت خمس دقائق فى التهام الشواء ثم قال :
ــ ولكنهم بالفطرة يكرهون الكلاب ..
فقالت باسمة وهى تلعق أناملها :
ــ أنا لا أحب الكلاب ..
ــ لا أعنى هؤلاء ..
ــ نعم ، ولم يخل بيتى منها أبدا حتى شهدت موت آخر واحدة وبكيت كثيرا فصممت ألا أعاشرها مرة أخرى ..
فقال ساخرا :
ــ ينبغى أن تتجنب الحب اذا تواعدنا بالتعب ..
ــ أنت لا تفهمنى ولا تحبنى ..
فقال برجاء :
ــ لا تكونى ظالمة ، ألا ترين أن الدنيا كلها ظالمة ؟ !



وأفرطت فى الشراب حتى دار رأسها واعترفت له بأن اسمها الحقيقى هو شلبية وقصت عليه نوادر من عهد البلينا . الطفولة والمياه الراكدة والشباب والهرب . ثم قالت بخيلاء :

ــ وأبى كان عمدة ..

فقال ببساطة :

ــ كان خادم العمدة !

فقطبت ولكنه بادرها قائلا :

ــ أنت التى قلت فى الزمان الأول ..

فضحكت كاشفة عن أسنان مغطاة بالبقدونس وقالت :

ــ أقلت ذلك حقا ؟

فقال بحدة :

ــ ولذلك انقلب رءوف علوان خائنا ..

فحدجته بنظرة انكار متسائلة :

ــ من رءوف علوان ؟

فقال بسخط :

ــ لا تكذبى ، ان من يعانى الظلمة والوحدة والانتظار لا يطيق الكذب ..

الفصل الثالث عشر



عقب منتصف الليل اخترق سعيد الصحراء وفى الجانب الغربى من السماء شىء من القمر . وعلى مبعدة مائة متر من

هضبة لقهوة صفر ثلاثا وراح ينتظر . لم يكن بد من أن يضرب ضربته أو يجن . وكان يأمل أن يجد عند طــرزان الخبر . وما لبث أن جاء طرزان كموجة من الظلام فتعانقا ثم سأله :

ــ هل من جديد ؟

فقال الرجل وهو يلهث بما يتناسب مع سمانته :

ــ أخيرا جاء واحد منهم ..

فتساءل سعيد بلهفة :

ــ من ؟

فشد على يده قائلا :

ــ المعلم بياظة وهو الآن فى القهوة يعقد صفقة ..

ــ لم يضع الانتظار هباء ، ماذا تعرف عن طريقه ؟

ــ سيرجع من طريق الجبل ..

ــ تشكر يا معلم ..

وابتعد مسرعا نحو الشرق مهتديا بالضــوء الوانى حتى الغابة المحدقة بعيون المياه . وسار بحذاء ضلعها الجنوبى حتى رأسها المدبب الغائص فى الرمال عند بدء الطريق المنحدر نحو الجبل . توارى وراء شجرة متربصا . وجرى هواء جاف منعش فصدرت عن رقعة الغابة الصغيرة وشوشــة ، وترامى الخلاء كالفناء ، ويده قابضة على المسدس ، يفكر فى الفرصة الممكنة ، فى الانقضاض على عــدوه غير المنتظر ، ثم فى بلوغ الهدف،

المضنى ، وأخيرا فى الهـلاك كآخر مستقر . وقال بصوت لم تسمعه الا الأشجار الثملة بالهواء :

ــ عليش سدره ثم رءوف علوان فى ليلة واحدة ، ثم ليكن ما يكون ..

وتوثب يصارع الانتظار ولكن لم يطل به الانتظار فما لبث أن لاح شبح يسرع فى الظلام ، آتيا من ناحية الهضبة نحو رأس الغاية . ولما لم يعد بينه وبين بدء الطريق الا متر اندفع سعيد من مكمنه مصوبا مسدسه هاتفا :

ــ قف ..

وتسمر الشبح كأنه تكهرب ، وحملق فى الرجل دون أن ينبس بكلمة ، فقال سعيد :

ــ بياظة أنا أعرف أين كنت وماذا فعلت ومقدار ما تحمل من نقود ..

فوضح تنفس الشبح كالفحيح وندت عن ذراعه حـركة خفيفة مترددة سرعان ما همدت ، وغمغم :

ــ فلوس العيال !

فلطمه على وجهه لطمة زادت الليـل سوادا فى عينيه وقال بنبرات منطلقة :

ــ ألم تعرفنى يا بياظة الكلب ؟ !

فهتف بياظة :

ـ من ؟ .. عرفت الصوت ولكنى لم أصـــدق .. سعيد مهران ؟ !

ـ لا تتحرك ، ستقتل عند أول حركة ..

ـ أنت تقتلنى ! ، لم ؟ ليس بيننا عداوة !

فمد سعيد يده الى صدره حتى عثر على الكيس المثقل ثم انتزعه من مربطه بقوة وهو يقول :

ـ هذه واحدة !

فهتف بياظة بجزع !

ـ هذا مالى ، ولست عدوا لك ..

ـ اخرس ، لم آخذ كل ما أريد بعد ..

ـ بيننا زمالة يجب أن تحترم .

فحرك المسدس فى يده وقال :

ـ اذا أردت النجـــاة بحياتك فخبرنى أين يقـــيم عليش سدرة ؟

فقال الرجل بتوكيد :

ـ لا أعرف ولا أحد يعرف ..

فلطمه لطمة أخرى أشد من الأولى وصاح بغضب :

ـ سأقتلك ان لم تدلنى على مكانه ، ولن تسترد نقودك حتى أتأكد من صدقك !

فقال الرجل بنبرة متألمة :

ـ لا أعرف ، أقسم لك أنى لا أعرف ..

ـــ كذاب !

ـــ أحلف لك بالطلاق ان شئت !

ـــ هل ذاب كما يذوب الملح ؟

فقال بنبرة تستجدى تصديقه :

ـــ لا أعرف ولا أحد يعرف ، انتقل من شقته عقب زيارتك له خوفا من بطشك ، انتقل الى روض الفرج ..

ـــ عنوانه ؟

ـــ انتظر يا سعيد ، بعد قتل شـــعبان حسين سافر ومعه أسرته دون أن يخبر أحدا عن وجهته ، كان مرتعبا وكانت المرأة مرتعبة ، ولا يدرى أحد عنهما شيئا !

ـــ بياظة !

ـــ أحلف لك بالطلاق بالثلاثة !

فلطمه الثالثة فتأوه وصاح بصوت ممزق :

ـــ لم تضربنى يا سعيد ؟ ، ربنا يجحمه حيث يكون ، أهو أخى أو أبى حتى أموت بسببه ؟ .

وصدقه فى النهاية على رغمه . ويئس من العثور على غريمه . ولو لم تكن تطارده جريمة قتل لصبر وانتظر حتى تحين الفرصة ولكن الرصاصـــة الطائشة أصابت أعز أمانيـــه . واذا ببياظة يقول :

ـــ أنت ظلمتنى !

ـــ فلم ينبس فاستطرد الرجل :

ــ وفلوسى ؟!

وتحسس الرجل خديه الملتهبتين ثم قال :

ــ أنا لم أسىء اليك فلا يحق لك أن تغتصب مالى ، ولى عليك حق الزمالة !

فقال باحتقار :

ــ كنت ضمن أعوانه ..

ــ كنت صديقه وشريكه ولا يعنى هذا أن أكون عدوك ، ولا شأن لى بخيانته ..

انتهى الصراع ولم يبق الا التراجع . وقال سعيد بصراحة :

ــ انى فى حاجة الى نقود ..

فبادره بباطة :

ــ لك ما تشاء ..

قنع سعيد بعشرة جنيهات . وذهب الرجل وهو لا يصدق بالنجاة . ووجد سعيد نفسه كما بدأ وحيدا فى الخلاء وقد تجلى ضوء القمر بوضوح أكثر وارتفعت مناجاة الأشجار . يبدو أن عليش سدرة قد أفلت من مخالب التأديب . نجا بخيانته ليزيد الخونة الآمنين واحــدا . أما أنت يا رءوف فالأمل الباقى فى ألا تضيع حياتى عبثا ..

الفصل الرابع عشر

رجع الى البيت ثم غادره ضابطا برتبة صاغ والساعة تدور فى الواحدة . اتجه الى شارع العباسية متجنبا أضواء المصابيح متخذا مشية طبيعية جداً بفضل قوة أعصابه . واستقل تاكسى الى جسر الجلاء ، ومر فى طريقه بأفراد من الشرطة فلم يرتع لمنظرهم بطبيعة الحال . وذهب الى مرسى القوارب القريب من الجسر فاكترى قاربا صغيرا لمدة ساعتين ومضى يجدف جنوبا صوب قصر رءوف علوان فى هواء رطيب وتحت سماء صافية مرصعة بالنجـوم وتربيع القمر معلق فوق أشجار الشاطىء . وكان يشعر بفورة نشاط عجيب وبأن حدثا متفجرا سينطلق عما قريب من صدره . أقنع نفسه بأن نجاة عليش سـدرة ليست هزيمة له ما دام سينزل عقابه برءوف علوان ، اذ أن رءوف هو رمز الخيانة التى ينضوى تحتها عليش ونبوية وجميع الخونة فى الأرض . وقال لرءوف علوان وهو يجدف بقوة : جاء وقت الحساب ، ولو كان الحكم بيننا غير الشرطة لضمنت تأديبك أمام الناس جميعا ، الناس معى عدا اللصوص الحقيقيين ، وذلك مايعزينى عن الضياع الأبدى . أنا روحك التى ضحيت بها ولكن



ينقصنى التنظيم على حد تعبيرك ، وأنا أفهم اليوم كثيرا مما
أغلق على فهمه من كلماتك القديمة ، ومأساتى الحقيقية أننى رغم
تأييد الملايين أجدنى ملقى فى وحدة مظلمة بلا نصير ، ضياع
غير معقـول ولن تزيل رصاصـة عنه عدم معقوليته ولكنها
ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أى حال ، كى يطمئن الأحياء
والأموات ولا يفقدون آخر أمل . ومال بالقارب نحو الشاطىء
فى نقطـة تواجه القصر على وجه التقـريب . وهبط منه الى
الأرض ثم جذبه بقوة حتى صار مقدمه فوق السفح ، ثم ارتقى
المنحـدر الى الكورنيش مكتسـبا من بدلته الرسمية ثقـة
وطمأنينة . لاح الطريق خاليا ولا أثر لمخبر حول القصر فانبعث
الارتياح فى نفسه ولم يخل فى الوقت نفسه من حنق . واكتنف
الظلام القصر عدا مصـباح الباب فتأكد لديه أن صـاحب
القصر لم يرجع بعد وان ذلك سيعفيه من اقتحام البيت ويذلل
له أكثر من عقبة . وفى مشية طبيعية مضى الى الشارع الى يسار
القصر فقطعه حتى آخره ثم مال مع شارع الجيزة نحو الشارع
الآخر الى يمين القصر عائدا منه الى الكورنيش وهو يتفحص
المكان كله ببصر من حديد . ومضى نحو شجرة فلبد فيما يليها
من رقعة محجوبة عن مصباح الطريق وراح ينتظر . واستقرت
عيناه على القصر طيلة الوقت عدا لحظات كان يريحهما بالنظر الى
سطح الماء المعتم ، ودارت أفكاره أثناء ذلك حول خيانة رءوف
والخدعة التى حطمت حياته ، والضياع الذى يحدق به ، والموت

الذى يسد طريقه ، وكيف أن كل أولئك جعل من موت رءوف أمراً لابد منه . وكان يتابع كل سيارة قادمة وهو يتوثب . وأخيرا توقفت سيارة أمام باب القصر وراح البواب يفتح الباب على مصراعيه . وأسرع سعيد نحو الشارع الى يسار القصر ، سار ملاصقا للسور ، ثم توقف عند نقطـــة محاذية للسلاملك حيث سيغادر الرجل سيارته . وتهادت السيارة فى مشى الحديقة حتى وقفت أمام السلاملك . وأضىء المصباح فغمر النور المدخل كله . أخرج ســعيد مسدسه وصــوبه نحو الهـــدف . وفتح باب السيارة . نزل رءوف علوان . وصاح سعيد :

ــ رءوف !

انتبه الرجل الى مصدر الصوت فى دهشة فصاح سعيد :

ــ أنا سعيد مهران .. خذ ..

غير أنه فى نفس الوقت انطلقت نحوه من الحديقة رصاصة أصاب أزيزها صميم أذنه . حدث ذلك قبيل أن يطلق مسدسه فاضطرب اضطرابا مفــاجئا وهو يطلق النار . وانحنى بسرعة ليتفادى من الرصاص المتتابع . ولكنه رفع رأسه فى تصميم يائس وحذر وسدد مسدسه مرة أخرى وأطلق رصاصة وأخرى فى عجلة ولهوجة . وقع ذلك كله فى ثوان ثم انطلق يعدو بأقصى سرعة نحو شاطىء النيل فوثب نحو القارب . ودفعه الى الماء ، وفى الثانية التالية كان يجدف بكل قوته نحو الشاطىء الآخر . دار شعوره حول نفسه كالدوامة ، وانطلقت قواه من أعمق

مكامنها مباشرة وبلا أدنى وعى ، وخيل اليه أن رصاصا ينطلق ، وأصواتا تتجمع ، وأن بعض جسمه يذوب . وكانت المسافة بين الشاطئين فى منطقة عبوره ضيقة فسرعان ما بلغ الشاطىء . ووثب اليه تاركا القارب للموج يفعل به ما يشاء . وصعد الى أرض الشارع بيد قابضة على المسدس فى جيبه . ورغم ما شعر به من تشتت فقد سار على مهل ، وفى هدوء ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . وتأكد لديه أن أقداما تتدافع نحو الشاطىء ، وأن أصواتا تحتدم وتعلو فوق الجسر ، واخترقت الجو الخامل صفارة مجنونة . وتوقع فى كل لحظة أن يلحق به مطارد . وتأهب للتمثيل بكافة احتمالاته أو لدخول المعركة الأخيرة . ومر به تاكسى قبل أن يقع حادث فناداه ، واستقله ، وما كاد يتخذ مجلسه حتى شعر بألم حاد ولكنه رغم ذلك شعر بنعمة النجاة . وتسلل الى المسكن فى ظلام حالك . واستلقى على الكنبة ببدلته الرسمية . وعاوده الألم كاشفا هذه المرة عن مكانه فوق الركبة فامتدت يده اليه فاستشعر سائلا لزجا . أووه .. هل ارتطم بشىء ؟ ، رصاصة ؟ ، وراء السور أم وهو يجرى ؟ . وتحسس موضعه فرجح لديه أنه مجرد جرح سطحى ، ولو كان رصاصة فقد احتكت به ولم تنفذ فيه . وقام فخلع البداة فى الظلام وفتش عن جلبابه فوق الكنبة فارتداه . وذرع الحجرة ليطمئن على رجله . قديما أنت قطعت شارع محمد على جريا برصاصة مستقرة لساعتها فى ساقك . أنت قادر على فعل العجائب . وقد تفوز بالهرب أيضا .

أما الجرح فقليل من البن يضمده . ولكن هل قتل رءوف علوان ؟ . ومن الذى أطلق النار من الحديقة ؟ . حذار أن تكون أصبت ضعيفا بريئا آخر . ولكن لابد أن رءوف علوان قد قتل فيدك لا تخطىء . كما شهدت بذلك الصحراء وراء الهضبة وسوف ترسل خطابا الى الصحف بعنوان « لماذا قتلت رءوف علوان » . عند ذاك تسترد الحياة معناها المفقود . فالرصاصة التى تقتل رءوف علوان تقتل فى الوقت نفسه العبث . والدنيا بلا أخلاق ككون بلا جاذبية . ولست أطمع فى أكثر من أن أموت موتا له معنى .

وأقبلت نور فى غاية من الاعياء محملة بالطيبات ، وقبلته كعادتها وانبسطت أساريرها لتلقى بتحية لقاء ولكن بصرها جمد فجأة على البنطلون فنحت اللفة على الكنبة وتناولته هاتفة :

ــ دم !

ولحظ ذلك لأول مرة فكشف عن رجله قائلا :

ــ جرح بسيط نتيجة ارتطام بباب التاكسى .

فصاحت :

ــ أنت خرجت مرتديا البدلة لسبب ، أنت لن تقف عند حد ، وسوف أموت كمدا ..

ــ قليل من البن يشفى هذا الجرح قبل طلوع الصبح ..

ــ طلوع الروح ! ، أنت تقتلنى قتلا ، آه .. متى يزول الكابوس ؟ !

ونشطت فى نرفزة فكبست الجرح بالبن وعصبته بقصاصة

من بقايا الفستان الذى كانت تخيطه ، وظلت طيلة الوقت تندب حظها . وقال لها :

ــ خذى دشا فهذا أنفع لك ..

فذهبت وهى تقول :

ــ أنت لا تدرى النافع من الضار ..

ولما رجعت الى مجلس حجرة النوم كان قد شرب ثلث الزجاجة فعاوده شىء من الاستقرار المريح ، واستقبلها قائلا :

ــ اشربى ، أنا هنا فى مكان آمن مطمئن لن تمتد اليه عين البوليس ..

فقالت فى نكد وهى تمشط شعرها المبتل :

ــ أنا تعيسة جدا ..

فتساءل وهو يواصل الشراب :

ــ من يستطيع أن يحكم عن الغد ؟

ــ عملنا !

ــ لا شىء ، لا شىء مؤكد الا قربك الذى لا غنى عنه .

ــ أنت تقول هذا !

ــ وأكثر ، أنت جنة وسط الرصاص الذى يجد ورائى ..

وتنهدت تنهدة طويلة كمناجاة فى الليل فقال :

ــ أنت طيبة جدا ، أحب أن أعترف بذلك ..

ــ أنا تعيسة ، لا أود الا أن تبقى فى السلامة ..

ــ ما تزال أمامنا فرصة ..

ــ الهرب ! ، فكر فى الهرب ..

ـ نعم .. ولكن لننتظر حتى يغمض الكلب عينيه ..

فقالت بحدة :

ـ ولكنك تخرج بلا مبالاة ، تود أن تقتل زوجتك والرجل الآخر ، ولن تقتلهما ولكنك ستلقى بنفسك فى الهلاك ..

ـ ماذا تسمعين فى الخارج ؟

ـ سائق تاكسى ، دافع عنك بحرارة ولكنه قال انك قتلت رجلا ضعيفا بريئا ..

ونفخ فى غضب ، وداري ألمه الطافح بشربة مليئة ، وأشار لها لتشرب فرفعت الكوب الى فيها ، وتساءل :

ـ وماذا سمعت أيضا ؟

ـ فى العوامة التى سهرت فيها قال أحدهم عنك انك منبه مسل فى الملل الراكد ..

ـ وأنت ماذا قلت ؟

فلحظته بعتاب وقالت :

ـ ولا كلمة ، أنا أحافظ عليك ، أما أنت فلا تحافظ على نفسك ، وأنت لا تحبنى ولكنك أعز علىّ من النفس والحياة ، وطول عمرى لم أعرف السعادة الا بين يديك ولكنك تفضل الهلاك على حبى ..

وبكت والكوب فى يدها فطوقها بذراعه وهمس فى أذنها :

ـ ستجدينني عند وعـدى ، سنهرب ونعيش معـا الى الأبد ..

الفصل الخامس عشر



يا للعناوين الضخمة والصــور المثيرة كأنه الحدث الأكبر الذى تتلقفه الصحف . وسألوا رءوف علوان فأجاب أن سعيد مهران كان خادما فى عمارة الطلبة على عهد اقامته بها ، وانه كان يعطف عليه كثيرا ، وانه زاره بعد خروجه من السجن مستجديا فأعطاه مالا ليبدأ حياة جديدة ولكنه حاول سرقة بيته فى الليله

نفسها فقبض عليه وعنفه ولكنه أطلق سراحه رحمة به ، وجاء أخيرا ليقتله ! . واتهمـته الصحف بالجنون . جنون العظمـة والدم . لقد أفقدته خيانة زوجته عقله فهو يطلق النار بلا وعى . ولم يصب رءوف علوان ولكن البواب المسكين سقط . برىء ضعيف آخر .

وصاح سعيد وهو يقرأ الخبر :

ـــ اللعنة !

الدوى يقرع بقوة صاروخية . وثمـة مكافأة ضخمة لمن يرشد اليه . ومقالات تحذر الشعب من العطف عليه . أنت أهم ما فى الحياة اليوم . وستظل كذلك حتى تزهق روحك . انك مثار الخوف والاعجاب كالظاهرات الطبيعية الخارقة . وسيدين لك بالسرور كل من خنقه الملل . أما مسـدسك فالظاهر انه لا يقتل الا الأبرياء وستكون أنت آخـر ضحية له . وتساءل بصوت جاف :

ـــ أهذا أهو الجنون ؟ !

كنت دائما تطمح الى زلزلة الكون من أساسه . حتى وأنت مجرد بهلوان . وغزواتك الظافرة للقصور كانت خمرا يسكر بها رأسك الفخور . وكلمات رءوف التى آمنت بها وكفر بها قائلها أطاحت برأسك حتى الموت .

ولبث وحيدا فى الليل ، وكان فى الزجاجة خمر فشربها حتى آخر نقطة . ووقف فى الظلام يطوقه صمت المقابر ودار رأسه

رويدا . وشعر بأنه يتغلب على الصعاب ويستهين بالموت ويطرب لأنغام خفية . وقال مخاطبا الظلام :

ـ رصاصة طائشة جعلت منى رجل الساعة ! ..

ومضى الى الشيش فنظر من خلاله الى القرافة وقد رقدت القبور تحت ضوء القمر وقال :

ـ يا حضرات المستشارين اسمعوا لى جيدا فقد قررت الدفاع عن نفسى بنفسى ..

ورجع الى وسط الحجرة ثم نزع عنه جلبابه لشدة الحرارة فى الحجرة ولارتفاع الحرارة فى جوفه من فعل الخمر . واختلج جرحه بالألم تحت العصابة فآمن بأنه آخذ فى الالتئام . وحملق فى الظلام قائلا :

ـ لست كغيرى ممن وقفوا قبلى فى هذا القفص ، اذ يجب أن يكون للثقافة عندكم اعتبار خاص ، والواقع أنه لا فرق بينى وبينكم الا أنى داخل القفص وأنتم خارجه ، وهو فرق عرضى لا أهمية له البتة ، أما المضحك حقا فهو أن أستاذى الخطير ليس الا وغدا خائنا ، ويحق لكم العجب ، ولكن يحدث أن يكون السلك الموصل للكهرباء قذرا ملطخا بافرازات الذباب ..

ومال نحو الكنبة فاستلقى عليها . وترامى اليه من بعيد نباح كلب . ولكن كيف تطمئن على قضاتك وبينك وبينهم خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام ؟ ! . انهم أقرباء

للوغد ويفصل بينك وبينهم قرن من الزمان . وأنت تطالب، بشهادة الضحية . وتؤكد أن الخيانة باتت مؤامرة صامتة ..

ـــ أنا لم أقتل خادم رءوف علوان ، كيف أقتل رجلا لا أعرفه ولا يعرفنى ؟ ، ان خادم رءوف علوان قتل لأنه بكل بساطة خادم رءوف علوان ، وأمس زارتنى روحه فتواريت خجلا ولكنه قال لى ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب ..

ستتألق هذه الكلمات وتتوج بالبراءة . أنت واثق مما تقول . وفضلا عن ذلك فهم يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأن مهنتك مشروعة ، مهنة السادة فى كل زمان ومكان ، وأن القيم الزائفة حقا فهى التى تقدر حياتك بالملاليم وموتك بألف جنيه وقاضى اليسار يغمز لك بعينه فأبشر .

ـــ سأطلب دائما رأس رءوف علوان ولو كآخر طلب من عشماوى ، حتى قبل رؤية ابنتى ، وأنا مضطر الى ألا أعد العمر بأيام لأن المطارد يقتات بزمنه انفعالات تنهال عليه فى وحدته كالمطر ..

لن يكون الحكم أقسى من جفول سناء . قتلتك قبل المشنقة وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأمانى الموتى . ألا يغفرون للمسدس خطأه وهو ربهم الأعلى ؟ .

ـــ ان من يقتلنى انما يقتل الملايين ، أنا الحلم والأمل وفدية الجبناء ، وأنا المثل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه ،

والقول بأنني مجنون ينبغي أن يشمل كافة العاطفين فادرسوا أسباب هذه الظاهرة الجنونية واحكموا بما شئتم ..

واشتد به الدوار فقضى بأنه عظيم بكل معنى الكلمة عظمة هائلة ولكنها مجللة بالسواد عشيرة للمقابر ولكن عزتها ستبقى بعد الموت . وجنونها تباركه القوة السارية فى جذور النبات وخلايا الحيوان وقلب الانسان . وسرقه النوم فلم يدر كيف سرقه ، ولم يفطن الى أنه نام حقا الا حين استيقظ على ضوء يغمر الحجرة . وفتح عينيه فرأى نور واقفة تنظر اليه من عينين ميتتين وقد تدلت شفتها السفلى واحدودب ظهرها فى قنوط ، بدت مثالا صادقا لليأس والضياع . أدرك ما وراء ذلك فى ثانية ، لقد سمعت عن الجريمة الأخيرة فانكتمت أنفاسها .

ـــ أنت أقسى مما أتصور ، لا أفهمك . ولكن بالله اقتلنى رحمة بى ..

وجلس على الكنبة دون أن ينبس .

ـــ أنت تفكر فى القتل لا فى الهرب ، وسوف تقتل ، هل تظن أنك ستهزم الحكومة بجنودها الذين يملأون الشوارع ؟

ـــ اجلسى والنتحدث فى هدوء :

ـــ من أين لى الهدوء ؟ ، وفيم نتحدث ؟ ، انتهى كل شىء ، اقتلنى رحمة بى ..

فقال بهدوء رقيق :

ـــ لا مسك سوء أبدا ..

ـــ لن أصدق كلمة مما تقول ، لماذا تقتل البوابين ؟

فهتف بحدة :

ـــ لم أقصد مسه بسوء !

ـــ والآخر ؟ ، من هو رءوف علوان ؟ ، ماذا بينك وبينه ؟ ، أكانت له علاقة بزوجتك ؟

فضحك ضحكة جافة كالسعلة :

ـــ فكرة مضحكة ! ، ثمة أسباب أخرى ، انه خائن أيضا ولكنه من نوع آخر ، لا أستطيع أن أفهمك كل شيء ..

فقالت بغضب :

ـــ ولكنك تستطيع أن تعذبني حتى الموت ..

ـــ قلت اجلسي لنتحدث في هدوء ..

ـــ أنت لا زلت تحب زوجتك ، تلك الخائنة ، ولكنك تعذبني أنا ..

فقال متوجعا :

ـــ نور ، لا تزيديني عذابا ، أنا في غاية من النكد ..

وصمتت متأثرة بتوجعه الذي لم تره من قبل . ثم قالت بحزن شديد :

ـــ اني أشعر بأن أعز ما في حياتي يحتضر ..

ـــ وهم وخوف ، أما المغامر مثلي فلا يعترف بالشدائد ، سأذكرك بذلك ..

فتساءلت بلهجة ندب :

ــ متى ؟

فقال مدعيا ثقة لا حد لها :

ــ أقرب مما تتصورين !

ومال نحوها فجذبها من يدها اليه ، ولصق جبينها بجبينه حتى امتلأ أنفه برائحة الخمر والعرق . ولم يتقزز ، بل قبلها بحنان صادق ..

الفصل السادس عشر

اقترب الفجر ونور لم تعد . أنهكه الانتظار والفكر حتى شعر بضربات السهاد تنهال على جمجمته . واذا بالظلمة الحارة تنحسر عن تساؤل أحمر : هل يمكن أن تلعب المكافأة الموعودة بقلب نور ؟ . حقا تلوث دمه بسوء الظن لآخر قطرة . والخيانة فى عينيه أضحت كرائحة الغبار فى اليوم الخماسينى . وكم ظن فى الماضى أن نبوية ملك يديه ، ولعلها فى الواقع لم تحبه قط حتى على عهد النخلة الوحيدة فى نهاية الحقل . ولكن رغم ذلك كله فنور لن تخونه ، ولن تسلمه الى البوليس طمعا فى مكافأة فقد ضجرت من المعاملات وتقدم العمر وباتت تحن الى عاطفة انسانية خالصة . ينبغى أن يندم على ســوء ظنه ، ولكن متى تعود نور ؟ . لقد اشتد بك الجوع والظمأ والانتظار . كحالك يوم وقفت تحت النخلة تنتظر . تنتظر نبوية ونبوية لا تجىء وجعلت تحوم حول بيت العجوز التركية وأنت تقضم أظافرك ، وكدت من اليأس أن تطرق الباب فى طيش جنونى . أى هزة فرح كانت تسكر جوارحك عند بزوغ طلعتها ! . هزة شاملة متغلغلة مطربة مسكرة تشدك من أطراف أصابعك الى السماء السابعة . فيها الدمعة والضحكة والاندفاع والثقة والفرحة الجامحة . ولكن

لا تتذكر عهد النخلة بعد ما انقضى وفصل بينك وبينه الدم والرصاص والجنون . انظر ماذا أنت صانع بمرارة الانتظار فى هـذه الظلمة الحارة القاتلة . يبدو أن نور لا تريد أن تعود ، لا تريد أن تنقذه من عذاب الوحدة والظلمة والجوع والظمأ . ورغم كل شيء فقد نام وهو أيأس ما يكون من النـدم . ولما فتح عينيه رأى الشيش ينضح بنور النهار ووهج الحر يشتعل فى الحجرة المغلقة . ووثب الى أرض الحجرة فى إنزعاج ثم انتقل الى حجرة النوم فوجدها كما تركتها المرأة أمس ، ودار بالشقة ، كلا ، نور لم تعـد . ترى أين باتت المرأة ؟ ، وماذا منعهـا عن العودة ؟ ، والام يقضى عليه بهذا السجن المنفرد ؟ . وقرصـه الجوع رغم قلقه وأفكاره فذهب الى المطبخ فوجد فى الصحاف كسرا من الخبز وفتات لحم عالقة بالعظام وبعضا من البقدونس فأتى عليها فى نهم شـديد وتمصمص العظام ككلب . وتقضى النهار وهو يتساءل عن غيابها وهل تعود ، يجلس حينا ويتمشى حينا آخر . ولم يجـد من تسلية الا فى النظر من الشيش الى القرافة ، ومتابعة الجنازات ، وعد القبور دون جدوى . وجاء المساء ولم تعد . لا يمكن أن يقع هذا بلا سبب . أين نور ؟ مزقه القلق والضيق والجوع . نور فى مأزق بلا ريب ، ولكن يجب أن تخلص من مأزقهـا ثم تعـود والا فكيف تمضى به الحيـاة !.

وغادر البيت عقب منتصف الليـل دون أن يسمع همس

حذائه أحد . وقطع الخلاء نحو قهــوة طرزان . وعند موقفه المعتاد صفر ثلاثا وانتظر حتى جاءه المعلم طرزان . وصافحه الرجل وهو يقول له :

ــ كن شديد الحذر ، لا يخلو شبر من مخبر ..

ــ أريد طعاما !

ــ يا خبر أبيض ! ، جوعان !

ــ نعم ، لا تعجب لشيء يا معلم !

ــ سأرسل الولد ليحضر لك الكباب ، ولكن من الخطر حقا أن تخرج ..

ــ تعرضنا فيما مضى لأخطار أشد ، أنا وأنت ..

ــ كلا ، الهجمة الأخيرة قلبت عليك الدنيا ..

ــ طول عمرها وهى مقلوبة ..

ــ ولكن من النحس أن تهاجم رجلا خطير الشأن ..

وودعه وانصرف . وبعد ساعة جاءه الطعام فالتهمه بعنف . وجلس فوق الرمال تحت قمر أوشك أن يكتمل . ونظر من بعيد الى النور المنبثق من قهوة طرزان فوق الهضبة ، وتخيل مجمع السمار والجالسين فى الحجرة . حقا انه لا يحب الوحدة . وهو بين الناس يتضخم كالعملاق ويمـارس المودة والرياسة والبطولة . وبغير ذلك لا يجد للحياة مذاقا . ولكن نور هل عادت ، هل تعود ، هل يرجع اليهـا أو يرجع الى الوحـدة القاتلة ؟ ! . وقام فنفض الغبار عن بنطلونه ، ومشى نحو الغابة



ليعود من الطريق الذى يدور حول مدفن الشهيد من ناحيته الجنوبية . وعند الموقع الذى انقض فيـه على بياظة انشقت الأرض عن شبحين وثبا نحوه فجأة حتى أحاطا به من الجانبين . قال أحدهما بلهجة ريفية ممدنة :

ــ قف ..

وهتف الآخر :

ــ بطاقتك الشخصية !

وسلط الأول على وجهه نور بطارية فأحنى رأسـه كأنه يحمى عينيه وصاح بعنف غير متوقع فى الوقت نفسه :

ــ من أنتما ؟ .. تكلما ..

دهش الرجلان للهجة الآمرة ولكنهما تبينا ملبسه على ضوء البطارية واذا بالأول يقول :

ــ لا مؤاخذة يا حضرة الضابط ، لم تتبين شخصيتك فى ظل الغابة !

فصاح بعنف أشد :

ــ من أنتما ؟

فقالا بعجلة ولهوجة :

ــ من قوة الوايلى يا فندم .

ومع أن البطارية انطفأت الا أنه قرأ فى وجه الآخر شيئا رابه . رآه يتمعن فيه بقوة . كأن شكا داخله . وخشى أن يفلت الزمام منه فبقوة تصميم لا تعرف التردد وجه قبضتيه معا الى

بطنى الرجلين فترنحا . وقبل أن يتمالكا نفسيهما انهال عليهما لكما فى مواطن الضعف كالفك وأعلى البطن حتى سقطا مغشيا عليهما ، ثم انطلق فى طريقه بأقصى سرعة . ولم يتجه نحو شارع نجم الدين حتى وقف عند منعطفه مليا ليتأكد من أن أحـدا لا يتبعه . ورجع الى البيت فوجـده خاليا كما تركه ، ووجد الوحشة والضيق والقلق فى انتظاره . وخلع الچاكتة وارتمى على الكنبة فى الظلام . وتساءل بصوت مسموع كئيب :

ــ نور ، أين أنت ؟

محال أن تكون بخير . هل قبض البوليس عليهـا ؟ ، هل اعتدى عليها بعض الأوغاد ؟ . هى ليست على أى حال بخير . هو يؤمن بذلك بقلبـه وغريزته . لن يرى نور مرة أخرى . وخنقه اليأس خنقا ، ودهمه حزن شـديد الضراوة . لا لأنه سيفقد عما قريب مخبأه الآمن ولكن لأنه فقد قلبا وعطفا وأنسا وتمثلت لعينيه فى الظلمة بابتسامتها ودعابتها وحبهـا وتعاستها فانعصر قلبه . ودلت حاله على أنها كانت أشد تغلغلا فى نفسه مما تصور . وأنها كانت جزءا لا يصـح أن يتجـزأ من حياته الممزقة المترنحة فوق الهاوية . وأغمض عينيه فى الظلام واعترف اعترافا صـامتا بأنه يحبهـا ، وأنه لا يتردد فى بذل النفس ليستردها سالمة . ونفخ غاضبا وهو يتساءل :

ــ هل تهتز شعرة فى الوجود لضياعها ؟

كلا . حتى نظرة الرثاء غير المجدية لن تحظى بها . امرأة بلا

لصير فى خضم من الأمواج اللامبالية أو المعادية . وسناء ــ كذلك ــ قد تجد نفسها يوما بلا قلب يهتم بها . وتقبض قلبه فى خوف وغضب فتناول مسدسه ثم سدده فى الظلام كأنما يحذر المجهول . وتأوه من الأعماق فى يأس . وهكذا طال به هذيان الصمت والظلام حتى صرعه النوم فى آخر الليل .

وفتح عينيه فى ضوء النهار وسرعان ما تنبه الى أنه استيقظ على يد تطرق الباب . نهض منزعجا ، ثم سار على أطراف أصابعه الى مدخل الشقة والطرق متواصل . وارتفع صوت امرأة مناديا : « يا ست نور .. يا ست نور ! » من المرأة وماذا تريد ؟ . ورجع الى الحجرة ثم عاد بمسدسه على سبيل الحيطة . واذا بصوت رجل يقول : « لعلها خرجت » فقالت المرأة : « فى مثل هذا الوقت تكون فى البيت ، ولم تتأخر من قبل فى دفع الايجار » . اذن فهى صاحبة البيت . وطرقت المرأة الباب طرقة غاضبة ثم قالت : « اليوم الخامس من الشهر ولن أصبر أكثر من ذلك ! » . وابتعدت هى والرجل وهما يتبادلان التعليق فى لهجة وعيد .

وآمن سعيد بأن الحوادث تطارده كالبوليس . لن تصبر المرأة طويلا على الانتظار ، وسوف تقتحم الشقة بوسيلة أو بأخرى ، وخير ما يفعل هو أن يغادر الشقة فى أقرب فرصة ممكنة ..

ولكن أين المفر ؟

الفصل السابع عشر



عادت صاحبة البيت الى طرق الباب عند العصر ثم عند المساء ، ورجعت آخر مرة وهى تقول : « لا لا يا ست نور ، لا بد لكل شيء من آخر » .

وغادر البيت متسللا عند منتصف الليل . وبالرغم من أنه فقد الثقة فى كل شيء الا أنه مشى مشية طبيعية جدا ومتمهلة

كأنما يتريض . وخيل اليه أكثر من مرة أن المارة والمتسكعين ليسوا الا مخبرين فتوثب لدخول آخر معركة يائسة . ولم يشك فى أن البوليس يحتل منطقة طرزان كلها بعد معركة أمس فمضى نحو طريق الجبل ، وكان الجوع ينهش بطنه ، ووجد نفسه يفكر فى مسكن الشيخ على الجنيدى كسرفأ مؤقت حتى يتسع له مجال التفكير والمغامرة . وتسلل الى فناء البيت الصامت ، وعند ذاك فحسب تنبه الى أنه نسى بدلته الرسمية ــ بدلة الضابط ــ فى حجرة الجلوس ببيت نور فغضب لذلك أيما غضب ، ولكنه واصل سيره الى حجرة الشيخ . ورأى الشيخ على ضوء المصباح متربعا فى ركن المصلى غارقا فى نجوى هامسة فذهب الى جدار الحجرة حيث ترك كتبه وجلس فى اعياء . واستمر الشيخ فى نجواه فقال سعيد :

ــ مساء الخير يا مولاى ..

فرفع الشيخ يده الى رأسه ردا على تحيته دون أن يقطع نجواه ، فقال سعيد :

ــ مولاى ، أنا جائع ..

فخيل اليه أنه قطع النجوى ورنا اليه من عينين غائبتين ثم أومأ بذقنه الى خوان قريب فرأى سعيد فوقه تينا وخبزا فنهض اليه دون تردد ثم التهمه بنهم حتى أتى عليه ، ووقف ينظر الى الشيخ بعينين تنطقان بعدم شبعه ، فسأله :

ــ أليس معك نقود ؟

ــ بلى ..

ــ اذهب واشتر شيئا تأكله .

فعاد الى مجلســـه صامتا ، وجعل الشيخ يتأمله مليا ، ثم ســـأله :

ــ متى يا ترى تستقر ؟

ــ ليس على سطح هذه الأرض ..

ــ لذلك فأنت جائع رغم نقودك ..

ــ ليكن ..

ــ أما أنا فكنت أردد شـــعرا عن الأحـــزان ولكن بقلب مبتهج ...

ــ أنت شيخ سعيد ..

ثم بغضب :

ــ هرب الأوغاد ، كيف بعد ذلك أستقر ؟ !

ــ كم عددهم ؟

ــ ثلاثة ..

ــ طوبى للدنيا اذا اقتصر أوغادها على ثلاثة .

ــ هم كثيرون ولكن غرمائي منهم ثلاثة ..

ــ اذن لم يهرب أحد ..

ــ لست مسئولا عن الدنيا ..

ــ أنت مسئول عن الدنيا والآخرة !

ونفخ لنفاد صبره فقال الشيخ :

ــ الصبر مقدس تقدس به الأشياء ..

فقال سعيد بغم :

ـ بل المجرمون ينجون ويسقط الأبرياء ..

فتساءل الشيخ وهو يتنهد :

ـ متى نظفر بسكون القلب تحت جريان الحكم ؟

فأجاب سعيد :

ـ عندما يكون الحكم عادلا .

ـ هو عادل أبدا ..

فحرك سعيد رأسه فى غيظ مغمغما :

ـ هرب الأوغاد والأسفاه ..

فابتسم الشيخ ولم ينبس ، فقال سعيد بنبرة جديدة يمهد بها لتغيير مجرى الحديث :

ـ سأنام ووجهى الى الجدار ، لا أود أن يرانى أحد ممن يزورونك ، انى ألجأ اليك فاحفظنى ..

فقال الشيخ برحمة :

ـ التوكل ترك الايواء الا الى الله ..

فسأله باشفاق :

ـ هل تتخلى عنى ؟

ـ معاذ الله ..

فتساءل فى يأس :

ـ هل فى وسعك بكل ما أوتيت من فضل أن تنقذنى ؟

ـ أنت تنقذ نفسك ان شئت ..

فهمس سعيد لنفسه :

ـ أنا أقتل الآخرين ..

ثم سأله بصوت مرتفع :

ـ هل تستطيع أن تقيم ظل شيء معوج ؟

فقال الشيخ برقة :

ـ أنا لا أهتم بالظلال !

وساد الصمت فدبت الحياة خارج الكوة التى يسيل منها القمر . ورتل الشيخ بصوت هامس « ان هى الا فتنتك » وقال سعيد ان الشيخ سيجد دائما ما يقوله . وبيتك يا مولاى غير مأمون وان تكن أنت الأمان نفسه . وعلىّ أن أهرب مهما كلفنى الأمر . وأما أنت يا نور فلتحفظك الصدفة ان أعوزك العدل والرحمة . ولكن كيف نسيت البدلة الرسمية ؟ . لففتها مصمما على أخذها معك فكيف نسيتها فى آخر لحظة ؟ . حقا فقدت جميل مزاياك بالسهاد والوحدة والظلمة والقلق . وقد يجدون فى البدلة أول خيط يوصل اليك . وقد تشمها الكلاب فتنتشر فى جهات الأرض الأربع كى تكتمل المأساة التى يتسلى بها قراء الصحف . واذا بالشيخ يقول فيما يشبه الأسى :

ـ سألتك أن ترفع وجهك الى السماء وها أنت تنذر بأنك ستدفنه فى الجدار !

فحدجه بحزن هاتفا :

ـ وحديثى عن الأوغاد ألا تذكره ؟

فقال بنبرة دسمة :

ــ واذكر ربك اذا نسيت .

فغض بصره فى كرب ثم ســاءل نفسه كيف نسى البــدلة ، وعاودته أفكار السوء . أما الشيخ فقال وكأنما يخاطب آخر :

ــ سئل « أرأيت رقى نسترقيها ودواء تتداوى به هل يرد من قدر الله ؟ » فأجاب « انه من قدر الله ! » .

ــ ماذا تعنى ؟

فقال وهو يتأوه آسفا :

ــ لم يكن أبوك ليغلق عليه قولى أبدا !

فقال سعيد بشىء من الحدة :

ــ من المؤسف أننى لم أجد عندك طعاما كافيا ، كما هو مؤسف أننى نسيت البدلة ، كذلك عقلى يتعذر عليه فهمك ، وسأدفن وجهى فى الجدار ، ولكنى واثق من أننى على حق ..

فقال باسما فى رثاء :

ــ قال سيدى « انى لأنظر فى المرآة كل يوم مرارا مخافة أن يكون قد اسود وجهى » !

ــ أنت ؟ !

ــ بل سيدى نفسه !

فتساءل ساخرا :

ــ فكيف ينظر الأوغاد فى المرآة كل ساعة ؟ !

وحنى الشيخ رأســه وهو يرتل « ان هى الا فتنتك » . وأغمض سعيد عينيه وهو يقول لنفسه « انى متعب حقا ولكن لن يهدأ لى بال حتى أجىء بالبدلة » .

الفصل الثامن عشر

وأذاب الارهاق ارادته فنام رغم تصـــميمه على احضار البدلة . واستيقظ قبيل الظهيرة فكان عليه أن ينتظر الليل . وفى أثناء ذلك رسم خطة للهرب ، ولـكن كان عليه أيضاً أن ينتظر حينا من الدهر حتى يغمض البوليس عينـــه عن منطقة طرزان وهو قطب الخطة . وبعد منتصف الليل ذهب الى شارع نجم الدين فرأى ضوءا فى نافذة الشقة . حملق فى النافذة مذهولا حتى تأكد مما يرى . ارتفعت دقات قلبه حتى أصمت أذنيه . واكتسحته فرحة فاقتلعته من دنيا الكابوس . نور فى الشقة . أين كانت ؟ ، سيعرف أسباب غيابها ولكنها عادت . هى الآن تتساءل عن مكانه وتعانى لفحات الجحيم الذى احترق فيه . ان قلبه يؤكد له عودتها ، قلبه الذى لا يكذبه قط . وهموم التشرد ستتلاشى الى حين وربما الى الأبد وســيحتويها بين ذراعيه بكل قوة ويعترف لها من قلب ممزق بالحب الأبدى . وتسلل الى داخل البيت نشوان بالسعادة والنصر ، ورقى فى السلم وهو يحلم بدرجات من النصر لا حد لها ولا حصر . سيهرب ويستقر طويلا ثم يعود يوما لينـكل بالأوغاد . واقترب من باب الشقة وهو يلهث . أحبك يا نور ، بكل قلبي أحبك ،

وأضعاف ما أعطيتنى من حب ، سأدفن فى صدرك ضياعى وخيانة الأوغاد وجفول ابنتى . وطرق الباب . وفتح الباب عن وجه رجل ! . رجل قصير فى ملابسه الداخلية . تبخر سعيد فلم يبق منه الا رماد . وحملق فيه الرجل بدهشة وهو يتساءل :

ـ من حضرتك ؟

وسرعان ما حلت محل النظرة المتسائلة نظرة شك وارتياع . أيقن سعيد أن الرجل سيعرفه . ودون تردد سد فاه بيسراه ولكمه بالأخرى فى بطنه . وتلقاه بين يديه فأنامه على العتبة كيلا يحدث صوتا . وفكر فى اقتحام الشقة تنقيبا عن البدلة ولكنه لم يكن متأكدا من خلوها . واذا بصوت امرأة يتساءل من الداخل :

ـ من الطارق يا معلم ؟

وتحول عن موقفه يائسا ، فقطع السلم وثبا حتى بلغ الطريق . وشق طريق المصانع الى طريق الجبل . وهناك شك فى أشباح تتحرك فلبد عند أسفل جدار وانطرح على وجهه . ولم يستأنف سيره الحذر حتى خلا الطريق من أى أثر لانسان . وتسلل مرة أخرى الى مسكن الشيخ قبيل الفجر . وكان الشيخ فى ركنه يترقب الأذان . وخلع بدلته وتمدد فوق الحصيرة دافنا وجهه فى الجدار رغم يأسه من نوم قريب . وقال له الشيخ :

ـ نم فالنوم عبادة لأمثالك ..

فلم ينبس ، ونادى الشيخ بصوت خافت « الله » . وظل

مسهدا حتى أذن الفجر ، ثم ظل مسهدا حتى ترامى صوت بياع اللبن . ولم يدرك أنه نام الا عندما رقد فوق صدره كابوس . ولما فتح عينيه رأى ضوء المصباح الوانى منتشرا فى الحجرة كالضباب . اذن لم ينم الا ساعة على الأكثر . والتفت نحو فراش الشيخ فوجده خاليا ، ورأى على كثب من كتبه المكومة شواء وتينا وقلة ماء . شكرا لك يا مولاى ولكن متى جئت بهذا الطعام ؟ . وسمع خارج الحجرة أصواتا فعجب لذلك ، وزحف على أربع نحو الباب الموارب فنظر من زيقه فرأى لدهشته أهل الذكر يفترشون الحصر ، كما رأى عاملا يوقد الكلوب فى أعلى الباب الخارجى . رباه انه المغيب لا السحر كما توهم . واذن فقد نام طيلة النهار وهو لا يدرى . يا له من نوم عميق حقا . وأجل التفكير فى أى شيء حتى يأكل فالتهم الطعام وشرب حتى روى . وارتدى البدلة ثم أسند ظهره الى كتبه ومد ساقيه الى الأمام . وسرعان ما ازدحمت رأسه بالبدلة الرسمية المنسية والرجل الذى فتح له باب الشقة وسناء ونور ورءوف ونبوية وعليش والمخبرين وطرزان والسيارة التى سيخترق بها الحصار ، عصفت جميعا برأسه . ليس الصبر فى صالحك ولا التردد . وبأى ثمن يجب أن تتصل بطرزان الليلة ولو ذهبت اليه زحفا فوق الرمال . غدا سينطح البوليس الصخر ويركب الرعد الأوغاد . وسمع فى الخارج يدا تصفق واذا بأصوات الرجال تسكت ، وجلال الصمت يسود . وردد

الشيخ على الجنيدى ثلاثا « الله » فردد الآخرون النداء فى نغمة رسمت فى مخيلته حـــركة الذكر الراقصـــة . الله .. الله .. الله ، وازدادت النغمة سرعة وارتفاعا ثم اختزالا مع زيادة فى السرعة كصوت قطار منطلق ، وتواصلت دون انقطاع فترة غير قصيرة ، ثم أخذ يداخلها الوهن رويداً ثم التراخى فى الايقـــاع والبطء ثم ترنحت وتهاوت فى الصمت . وعنـــد ذاك علا صوت رخيم مترنما :

واحسرتى ، ضاع الزمان ، ولم أفز
منكم ، أهيـــل مـــودتى بلقـــاء
ومتى يؤمل راحـــة مَن عمـــره
يومان ، يوم قلى ، ويوم تنـــاء

وارتفعت التأوهات فى الأركان ، ثم ارتفع صـــوت آخر يترنم :

وكفى غـــــراما أن أبيت متيما
شوقى أمامى والقضـــاء ورائى

وانتشرت التأوهات مرة أخرى . وتتابع الغناء حتى صفقت اليد داعية الى الذكر من جديد . فتردد اسم الله بغير انقطاع . واستسلم للسماع ، وزحف الليـــل . ثم ركضت الذكـــريات كالسحب . تمايل عم مهران الأب مع الذاكرين وجلس الغلام عند النخلة يراقب المشـــهد بعينين مشـــدوهتين . وانبثقت من الظلمات أخيلة عن الخلود فى كنف الرحمن . ومضت آمال

باهرة نافضة عنها تراب النسيان . وتحت النخلة الوحيدة بشارع المديرية ندت همسات ندية كأفراح الفجـر . وتكلمت سناء الصغيرة فى حضنه بلغة فطرية ساحرة . ثم هبت أنفاس متقدة من أعماق الجحيم توالت بعـدها الضربات . وامتدت أنغام المنشد وآهات الذاكرين . ومتى يؤمل راحة ، وضاع الزمان ولم أفز ، والقضاء ورائى . وهذا المسدس المتوثب فى جيبى له شأن . لا بد أن ينتصر على الغدر والفساد . ولأول مرة سيطارد اللص الكلاب .

وفرقع صوت مزعج تحت الكوة وحاورته أصوات :

ـ يا خبر ، الحى كله محاصر ..

ـ ولا أيام الحرب !

ـ سعيد مهران ..

انكمش فى تكهرب ويده تلتصق بمسدسه ، وتحفزت فيه كل جارحة . وأجال فى المكان نظرة زائغة . مكان مزدحم وفيه اغراء للمخبرين . يجب ألا تسبقنى الحوادث . انهم يتفحصون الآن البدلة وهناك الكلاب . وأنت هنا عار معرض للأبصار . وان يكن طريق الصحراء ملغما فعلى خطوات يقع وادى الموت . وسأقاتل حتى الموت . ونهض مصمما مقتربا من الباب . الجميع غارقون فى الذكر والممـر الى الباب خال . ومرق من البـاب ومضى نحو الطريق . ومال يسرة وهو يسير فى هدوء مصطنع ثم انحدر فى طريق المقابر . الليل راسخ ولكن القمر لم يطلع والظلام جدار أسود يسد الطريق . وغاص وسط القبور فى تيه

من الفناء لا يهتدى بشيء . وتخبط فى سيره لا يدرى ان كان يتقدم أم يتأخر . ومع أن بارقة أمل واحدة لم تومض الا أنه طفح بحيوية خارقة .. وترامت اليه مع النسيم الدافىء ضوضاء . وتمنى أن يختفى فى قبر ولكنه لم يكف عن السير . وكان يخشى الكلاب ولكن لم يكن فى وسعه حيلة ولا فى طاقته أن يقف . وبعد مسير دقائق وجد نفسه فى الصف الأخير من القبور ورأى أمامه منظرا غير غريب . انه مدخل القرافة الشمالى فيما يتصل بشارع نجم الدين . أجل هذا هو شارع نجم الدين ، وهذا هو البيت الوحيد القائم فيه ، وهذه هى الشقة ، وها هى النافذة مفتوحة ينبعث منها نور . وأحدّ البصر فرأى فى النافذة امرأة ، ها هو رأسها مطموس المعالم . ولكنه يذكره بنور . وخفق قلبه خفقة مزلزلة . هل عادت نور ؟ ، أو أن عينيه تخدعانه كما خدعه قلبه بالأمس ؟ ! بتّ لعبة فى أيدى الخدع وهذا نذير بالنهاية . وان تكن هى نور فما يريد الا أن ترعى سناء اذا حم القضاء . وقرر أن يناديها على ما فى ذلك من مخاطرة . وقبل أن يخرج الصوت من حلقه ترامى من بعد نباح كلاب ، ثم تتابع فى الصمت كالطلقات المتفجرة . وتراجع فى فزع . وأوغل بين القبور والنباح يشتد ؟ وألصق ظهره بقبر ثم أشهر مسدسه وهو يحملق فى الظلام موقنا بدنو الأجل . أخيرا جاءت الكلاب وانقطع الأمل . ونجا الأوغاد ولو الى حين . وقالت حياته كلمتها الأخيرة بأنها عبث . ومن المستحيل تحديد مصدر النباح الذى ينطلق مع الهواء فى كل موقع . ولا أمل فى

الهروب من الظـــلام بالجرى فى الظلام . نجا الأوغاد وحياتك عبث . واقتربت الضوضاء والنباح وقريبا تتردد أنفاس الحقد والتشفى على وجهك . وحرك مسدسه فى غضب والنباح يشتد ويقترب . واذا بضوء ساطع باهر يغمر المنطقة فى حركة دائرة فأغمض عينيه وارتمى أسفل القبر . وهتف صوت فى ظفر :

ـــ سلم ، لا فائدة من المقاومة ..

وارتجت الأرض بوقع الأقدام الثقيلة المطوقة وانتشر الضوء كالشمس :

ـــ سلم يا سعيد ..

اشتد التصاقه بالقبر متأهبا لاطلاق النار ودار رأسه فى كل مكان . وصاح صوت وقور :

ـــ سلم ، وأعدك بأنك ستعامل بانسانية ..

كانسانية رءوف ونبوية وعليش والكلاب !

ـــ أنت محاصر من جميع الجهات ، القرافة كلها محاصرة ، فكر جيدا وسلم نفسك ..

واطمأن الى أن تناثر القبور يحول دون رؤيته فلم يتحرك وصمم على الموت . وتساءل صوت فى حزم :

ـــ ألا ترى أنه لا فائدة من المقاومة ؟

وشعر باقتراب الصوت عما قبل فصاح مكرها :

ـــ الويل لمن يقترب ..

ـــ حسن ، ماذا تنوى ؟ ، اختر بين الموت وبين الوقوف أمام العدالة .



فصرخ بازدراء :

ـــ العدالة !

ـــ أنت عنيد ، أمامك دقيقة واحدة ..

ورأت عيناه المعذبتان بالخوف شبح الموت يشق الظلام . وجفلت سناء بلا أمل . وأحس حركة غادرة فاستشاط غضبا وأطلق النار . وانهال الرصاص حوله فخرق أزيزه أذنيـــه ، وتطاير نثار القبور . وأطلق الرصاص مرة أخرى وقد ذهل عن كل شيء فانصب الرصاص كالمطر . وفي جنون صرخ :

ـــ يا كلاب !

وواصل اطلاق النار في جميع الجهات .

واذا بالضوء الصارخ ينطفيء بغتة فيسود الظلام . واذا بالرصاص يسكت فيسود الصمت . وكف عن اطلاق النار بلا ارادة . وتغلغل الصمت في الدنيا جميعا . وحلت بالعالم حال من الغرابة المذهلة . وتساءل عن ... ولكن سرعان ما تلاشى التساؤل وموضوعه على الســـواء وبلا أدنى أمل . وظن أنهم تراجعوا وذابوا في الليل . وأنه لا بد قد انتصر . وتكاثف الظلام فلم يعد يرى شيئا ولا أشباح القبور . لا شيء يريد أن يُرى . وغاص في الأعماق بلا نهاية . ولم يعرف لنفسه وضعا ولا موضعا ولا غاية . وجاهد بكل قوة ليسيطر على شيء ما ، ليبذل مقاومة أخيرة . ليظفر عبثا بذكرى مستعصية . وأخيرا لم يجد بدآ من الاستسلام فاستسلم بلا مبالاة .. بلا مبالاة ..

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

العنوان	النوع	الطبعة الأولى		
مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	الطبعة الرابعة	١٩٦٣
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	» »	١٩٦٣
رادوبيس	» »	١٩٤٣	» الخامسة	١٩٦٤
كفاح طيبة	» »	١٩٤٤	» »	١٩٦٤
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	» »	١٩٦٢
خان الخليلي		١٩٤٦	» السادسة	١٩٦٥
زقاق المدق		١٩٤٧	» السادسة	١٩٦٥
السراب		١٩٤٨	» الرابعة	١٩٦٣
بداية ونهاية		١٩٤٩	» السادسة	١٩٦٥
بين القصرين		١٩٥٦	» الخامسة	١٩٦٤
قصر الشوق		١٩٥٧	» »	١٩٦٢
السكرية		١٩٥٧	» »	١٩٦٤
اللص والكلاب		١٩٦١	» الثالثة	١٩٦٤
السمان والخريف		١٩٦٢	» »	١٩٦٥
دنيا الله	قصص قصيرة	١٩٦٣		
الطريق	رواية	١٩٦٤	» الثانية	١٩٦٥
بيت سيء السمعة	قصص قصيرة	١٩٦٥		
ثرثرة فوق النيل	»	١٩٦٥		
الشحاذ	رواية	١٩٦٦		

تحت الطبع :

اولاد حارتنا	رواية
ميرامار	»

دار مصر للطباعة